أحمد الداودي

سيرة
ذاتية

بوح من عمق ملجأ

دار بسمة
للنشر الالكتروني

بوح من عمق ملجأ

اسم الكتاب: بوح من عمق ملجأ
اسم الكاتب: أحمد الداودي
نوع العمل: سيرة ذاتية
الرقم الدولي EBIN: 16-1-275-231101
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2023م / 1445هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934
داربسمة للنشر الإلكتروني (المغرب)
Darbassma1@gmail.com
المملكة المغربية

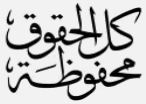

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. كما لا يجوز بأيّ صورة نشر أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

بوح من عمق ملجأ

سيرة ذاتية

أحمد الداودي

دار البسمة للنشر الإلكتروني

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

لا نعيش الحياة إلَّا لتُحكى للآخرين؛ كي تكون عبرةً أو نبراسًا نستضيء به في عتمة طريق الحياة، ومساراتها الملتوية والطَّويلة.

لا غرو إذن القول: إنَّ وراء كلِّ فرد حكايات نقشها على صخرة ذاكرته، وخزَّان لا وعيه، رُسِبت بفعل التَّقادم لكنَّها تطفح بين الفينة والأخرى في سماء الوجود؛ لترسم خارطة طريق للحاضر والمستقبل.

وحكاياتي، أنا القادم من عمق الجروح والمآسي، لا تزيغ عن هذا الإطار، تنبع من عيون واقع لا زال يُلقي بكلِّ ثِقَله على لحظات عيشي وتواجدي، أستنشق رحيق ذكرياتها حينما أخلو في غار وحدتي، وأغوص في بئر أغواري، وكهوف أعماقي المظلمة.

لا أحسب شيئًا أعظم عندي من هذا الذي أحمله في داخلي، يَحيى بين فكري وتفكيري، يُوَجِّه بوصلة ذهني، وعربة فعلي.

حكاياتي هي جزء من روحي، من كينونتي، من هويتي... يستظلُّ بها جسدي المُتخَم بآهات وأنين الماضي البعيد.

عبر حافلة سرد أصاحبُكم معي في سفر طويل، عبر زمن جيولوجي نقشت فيه كل حفرياته وحيدًا في مستنقع لا يرحم الضُّعفاء، ويعيش فيه من يملكون سببًا قويًّا للبقاء، نسافر سويًّا إلى جزيرة تبني الإنسان كما في تصميمها وهندستها، لا كما في تصميمه وهندسته. سَفَرٌ لن يتطلب منَّا الكثير؛ فهو زهيد كقيمة الإنسان في وطني، لكنَّه قد يكون مفيدًا كما هو حال كل السَّفريات.

أحكي بصيغة المتكلِّم، ولكنَّ الأحداث قد تُلامس حياة العديد من القُرَّاء؛ لأنَّها تتشابه في مسرح الواقع والمواقع، ولأنَّ وراء كلِّ سيرة، سيرة أخرى تُشبهها، ولو اختلفت معها في الزَّمان والمكان. أحداث أحدثت تغييرًا جوهريًّا في حياتي. هي ما أملت عليَّ كتابة هذه السيرة؛ لأنَّها تركت في نفسي أثرًا غَيَّر مسار تفكيري، وطموحي، وآمالي في الحياة.

إنَّها درس نافع، ومقود يقود نحو مسالك الأمان، ينتشل من جُبِّ الصِّعاب، ويُبْعد الإنسان عن أنياب الذِّئاب.. وكان القلق دافعًا آخر من بين الدَّوافع الدَّاخلية التي حفَّزتني لمثل هذا النَّوع من الكتابة التي لا

تعدو أن تكون استعادة لشريط ماضوي من الأحداث سواء كانت باسمة مثل أزهار الرَّبيع، أو حزينة مثل شمس الشِّتاء.

القلق من عدم الاستفادة من هذه التَّجارب التي أعتبرها نبراسًا لكلِّ الأجيال التي ستصطدم بمثل هذه الوضعيَّات، شرط الصِّدق هو الضَّامن الفعلي لمتعة وجودة رواية ما نعيشه، ونحياه في الحياة مهما بدا لنا في لحظات ما ساذجًا، وغبيًّا.

يقول الكاتب والشَّاعر الإنجليزي صامويل تايلر:" إنَّ حياة أيِّ إنسان، مهما كانت تافهة، ستكون ممتعة إذا رُوِيَتْ بصدق". وأنا الحاكي الصَّادق حتى وإن كنت أرى أن أعذب الحكي في الكذب لا في الصَّدق، ففي الكتابة لا ينبغي أن نكبح جماح الخيال باعتباره ركنًا لا محيد عنه.

بقلم أحمد الداودي

وشم الأمكنة

هناك أماكن وفضاءات لا تستطيع الذَّاكرة أن تُمارِس الطَّرد عليها؛ لأنَّها، مع مرور الزَّمن، تُصبح جزءًا لا يتجزَّأ من مساحتها، وركنًا من أركانها، فتُحيي بداخلها دون أن يَطالها النِّسيان ما بقيَ صاحب الذَّاكرة على قيد الحياة، سواء كانت هذه الأماكن، والفضاءات مَثار بهجة وسعادة وهناء، أو على العكس من ذلك مثار قلق وحزن وشقاء..

وإذا كان لي مكان تَشكَّل ضمن تضاريس ذاكرتي، وبات مَعْلَمتها ومنارتها، فلن يكون هذا المكان إلَّا ملجأ "التَّعاون الوطني " الذي لم يستطع النِّسيان أن يزحف نحوه على الإطلاق، مكان يعرفه الدَّانِي والقاصِي في مدينة لا هي صغيرة، ولا هي كبيرة..

هو منذ النَّشأة، والتأسيس ملجأ لمن لا ملجأ له، وحكرًا على نُخبة المهمَّشين، والمقصين، ومن هم غير خاضعين للتَّصنيف اجتماعيًّا، في

هذه المدينة التي لا زالت ترتدي ثوب عباءة البداوة، وتستظلُّ بظلِّها في الإنسان، وشكل الحياة، والمعمار.

المدينة التي غالبًا ما وَهَبتْ نفسها لمن لا يستحقُّها، لمن يُمارس عليها فعل الاغتصاب القسري، الذي يحرمها من أثمن ما تملك، ويرحل رحيلًا مؤقتًا في انتظار محاولة أخرى كي يُعاوِد الكَرَّة، هذه المدينة التي عاشت داخلي طيلة سنوات عمري، وأحببتها كما لو أنِّي لا أعرف سِواها، وعشقتها لبساطتها وبساطة العيش فيها، ألِفْتُ هواءها، أرضها وسماءها، ماءها ونِعَمها، طعمها، وطعامها، أحياءها، وزقاقها.. كَبُرتْ مع مرور الزَّمن، وكبرتُ في أحضانها الدَّافئة، في سهولها الشَّاسعة، بين أشجارها المثمرة، وقرب غاباتها المسروقة..

لا أنكر، ولن أنكر، أنِّي كرهت هذه المدينة في أحيان كثيرة كرهًا شديدًا، والسَّبب – ربَّما – أنِّي أحببتها حبًّا كبيرًا، كُرهي لها كان حبًّا دفينًا على الدَّوام، لم يكن كاذبًا. عالم النَّفس البلجيكي الذي قال: "إنَّ الكُره استمرار للحبِّ "، **la haine est une suite d'amour**.

حي الغمارين، أقدم الأحياء بهذه المَدينة، المَدينةُ لي بحيِّ ووادي، كان مكان إيوائي أو "حيازتي" –إن جاز هذا المصطلح الذي

كان متداولًا بيننا في تلك المرحلة العمرية من حياتي– حيٌّ عتيق يطلُّ على وادي "بهت" الذي يُضفي على المدينة جمالًا، ورونقًا في فصل الشِّتاء والرَّبيع، وقُبحًا ونقمةً في فصل الصَّيف والخريف، بما يجود به على السَّاكنين المجاورة من روائح تنفر منها حتى الحيوانات.

الوادي الذي يخترق المدينة، ويقسمها إلى جزئين؛ شكَّل على الدَّوام بؤرة تهديد لكلِّ أحياء المدينة، كنت صغيرًا يافعًا لا أعرف من الحياة إلَّا ما أراه بعيني، ولا أحلم إلَّا بالأشياء الصَّغيرة التَّافهة، ولشدَّة ما كان يخيفني، ويرعبني، ويجعلني أنزوي في زوايا البيت مشلولًا، وأفكر جدِّيًّا في حِمام الموت، وهو يطوف حولي؛ وهو منظر الفيضان الذي يُحدثه وادي "بهت" الذي ينبع من جبال الأطلس الشَّامخة، هذا الفيضان يأكل الأخضر واليابس من الأحياء الغربيَّة للمدينة، ويترك هلعًا، وخوفًا في نفوس السَّاكنين صغيرًا وكبيرًا.

وفي أحيان نادرة يشمل طغيان الوادي وجبروته المدينة بأكملها، ويبتلع الجماد، والحيوان، والإنسان، فلا يخلف إلَّا المآسي، والجوع، والخوف من القادم.

لوادي "بهت" تاريخ قديم، وعميق في نفوس كلِّ من تربَّى في أحضان هذه المدينة، وعاش في كنفها زمنًا طويلًا، إنَّه جزء لا يتجزَّأ من

جغرافيَّتها، وكينونتها، وتواجدها؛ فهو كائن قاتل، مُدمِّر لا يعرف الرَّحمة، ولا الشَّفقة في أشدِّ أيام الشِّتاء الممطرة بفيضاناته الكثيرة والكبيرة، أما صيفًا وفي السَّنوات التي تبخل السَّماء عن الأرض بالأمطار؛ يُعاقب الوادي النَّاس بروائحه الكريهة التي تُسبِّب الأمراض الجلدية والحساسية لمعظم السَّاكنين، ويُلوِّث هواءها فتغدو مرحاضًا واسعًا، الحياة فيها لا تُطاق، بل تُصبح جحيمًا وعذابًا يوميًّا لا يُحْتمل، تَعَايش أهل هذه المدينة معه كما يتعايش الضحيَّة مع الجلَّاد، وكما يتعايش السَّجين مع السجن..

في أيَّامي الأولى التي استقبلتني فيها هذه المدينة، كنت أقطن بجانب هذا الكائن، وكانت لي معه علاقة نشأت منذ أيَّامي الأولى لتواجدي بهذا الحيِّ، كنت، رغم صغري، أقف فوق الضفَّة المرتفعة للوادي، فأستمتع بجريان المياه العكرة حاملةً على ظهرها الحطب، والحشائش، وجثث الحيوانات نحو المصبِّ، أجد في ذلك لذَّة لا تُوازيها لذَّة أخرى، فأقضي وقتًا غير قصير أُراقب المياه دون توقُّف، كان يُخيَّل إليَّ أنَّني أعرف أسراره الخفيَّة الدَّفينة التي لا يعلمها أقراني، نعم للوادي أسرار بعضها ظاهر للعيان، والبعض الآخر يُخزنها في الأعماق، وما أكثرها!

كان جريان المياه القوي يرعبني، يخيفني، فلطالما سمعت قصصًا كثيرة ومثيرة عن ابتلاع الوادي لأطفال صغار لا يعرفون فنَّ السِّباحة، كنت في تلك المرحلة العمرية المبكِّرة من حياتي على دراية كبيرة بأحوال النَّهر وتقلُّباته، أعلم، بخبرة الحدس، أوقات رأفته، وحنانه، كما أعلم أوقات قسوته وشدَّته.

كان حُكْمي عليه ينطلق من خلال قوَّة أو ضعف جريان المياه، فلا أقترب منه إلَّا حين أحسُّ أنَّه حنون، عطوف، رؤوف، كان هناك أيضًا منظر السَّلاحف، وهي بجانب النَّهر تأخذ نصيبًا من حرارة الشَّمس لتدفئة جسدها؛ يُغريني بمشاهدتها، وأحيانًا بالتقاطها، ومُداعبتها بين دراعي، كانت لحظات تُنسيني اللَّيالي الغريبة في حياتي، اللَّيالي التي عشتها بعيدًا عن دفء الأسرة، والعائلة، ونعرة القبيلة التي حملت مشعل موروثها الثَّقافي الأصيل، اللَّيالي التي ستظلُّ وشْمًا حتى آخر رمق من حياتي.

لعلَّ أغربها على الإطلاق، اللَّيلة الأولى التي قضيتها في تلك الغرفة المجاورة لبيوت صغيرة من القصدير المخصَّصة لتربية الطُّيور، والدَّواجن، والتي جاد بها عليَّ أحد أصدقاء أبي، منذ البدء ساورني إحساس أنِّي مشروع "حارس ليلي" لكنِّي كنت أقول لنفسي: "ما العيب

في ذلك؛ ما دام الهدف الأسمى هو متابعة دراستي، والهروب من الجهل الذي يُرخي ظلاله على قريتي المترامية الأطراف؟

ليلة نقشت في ذاكرتي وشومًا لا تُمحى، ليلة ليست كباقي اللَّيالي، مختلفة ومخالفة في كلِّ شيء، أذكر جيدًا أنِّي جلست القرفصاء وسط غرفة تحتوي على حصيرة بالية مثقوبة بدوائر في كلِّ أجزائها، وبعض الأفرشة البسيطة التي تفوح منها روائح ذات نتانة لا تُوصف، أُداعب النَّوم الذي خاصم جفوني، وقرَّر أن لا يقترب منِّي، وأُغالب الخوف الذي بطش وسيطر على كياني، أتخيَّل الأشباح على اختلاف أشكالها، وأتخيَّل قدوم الجنِّ كما تمثَّلته من حكايات أمي، كان الخوف أكبر منِّي، والتخلُّص منه أكبر همِّي، لا أستطيع الخروج من الغرفة معتقدًا أنَّ الأشباح والجنَّ في انتظاري قرب الباب، وأنَّهم بمجرَّد رؤيتي سيطيرون بي إلى أماكن بعيدة لا يعلمها أحد.

بقيت جامدًا في مكاني اللَّيل كله، لا أتحرَّك لكي لا أحدث صوتًا وكأنِّي من أهل الكهف، نقيق الضَّفادع المدوي في الوادي القريب من سكني يتردَّد على مسامعي، لا يكاد يتوقَّف، يختلف، منه الجهوري، والغليظ، والرَّقيق، فيُشكِّل موسيقى مجانيَّة تُنسيني أحزانَ وهمومَ اللَّيلة الغريبة، هو دعوة صريحة للتَّكاثر؛ لأنَّ فترة الخصوبة تدفع الضَّفادع إلى

البوح برغباتها عبر الأصوات المتعدِّدة والمختلفة، كم كانت فرحتي عظيمة حينما شاهدت نور الصَّباح ينتصر على ظلام اللَّيل؛ لأسمع أخيرًا صوت صاحب المنزل يقول:" اهبط لكي تفطر معنا"، وتنتهي تلك اللَّيلة الأغرب في حياتي، اللَّيلة التي نزعت الخوف من الأشباح نهائيًّا من داخلي، وبات هذا المصطلح في تمثُّلي الجديد فارغًا من معناه ودلالته التي يرمز إليها..

في الملجأ، بَدأتُ حياتي من جديد، وكأنِّي وُلِدتُ، وترعرعتُ في هذا الفضاء الذي أعترف أنَّني ابنه الشَّرعي؛ لأنِّي نشأتُ، وقدمت من رِحَم وجوده، وتواجده، لولاه لكنت شخصًا آخر مُخالِفًا، ومختلفًا عمَّا أنا عليه فكرًا وتفكيرًا، وكان السَّبب الحقيقي وراء تسميته بـــ "التَّعاون الوطني" في بداية نشأته بما يُقدِّمه في الميدان الاجتماعي من ورش التَّنمية بمختلف أشكالها؛ خدمةً للمدينة والوطن، ومُساهمةً في قيادتهما إلى الأمام، وأيضًا؛ لأنَّه يستمدُّ بقاءه، وشرعيَّته من المساعدات، والهبات التي يُقدِّمها أعيان المدينة، وساداتها في شكل تعاون وتكافل مقابل الحصول على امتيازات، ومساعدات تُعطَى في الكواليس فقط، وما أكثر الأشياء التي تُعطى في الكواليس في وطني الغالي!

الهبات في أحيان كثيرة ليست مجانيَّة، أو ليست لذاتها بتعبير "سقراط"، وإنَّما تُعطى لأهداف قريبة أو بعيدة، تُعطى من أجل مقابل ما، في البداية يكون مستورًا، وخفيًّا، لكنَّه سرعان ما ينكشف، ويعلن عن نفسه..

ولجتُ إلى عالم هذا الفضاء، وأنا لا زلت غضًّا يافعًا في عمر الورود؛ إذ لا يتعدَّى عمري الثَّانية عشر أو الثَّالثة عشر على أبعد تقدير، فتاريخ ميلادي غير معروف ومجهول؛ لأنَّ الجهل منذ تلك الحقبة الزمنية، كان ولا يزال، يُرفرفُ فوق سماء البوادي، والقرى المغربية، والكثير من العائلات، ومنها عائلتي، ينعدم في رفوف منازلها كناش الحالة المدنيَّة..

للأمَّية أعشاش وكهوف تعيش بداخلها في شجرة عائلتي الممتدَّة في الزَّمان والمكان، قَدِمْتُ من قرية مترامية الأطراف لم يكن للعلم مكان بين أهلها، كانوا يعيشون على ما تَجودُ به أرض لا تتعدَّى مساحتها هكتارًا واحدًا لكلِّ أسرة، الفلاحة مصدر عيشهم رغم بساطتها، وتقليديَّتها، والقمح بأنواعه هو القلب، والمحرِّك، وعماد هذه الفلاحة المعاشية؛ إذ يشغل الحيِّز الأكبر من المساحات الفلاحيَّة المزروعة إلى جانب البرسيم الذي شغل الجزء الباقي؛ لما شكَّلته تربية الماشية من دور

لا يُستهان به في حياة أُناس هذه القرية الذين كانوا يعيشون على هامش الهامش، وكأنَّهم من كوكب آخر.

المَلاقيط: اسم البادية التي التَقَطَتْ صيْحتي الأولى، بادية تعيش خارج الزَّمن، والوطن، والعالم، مجهولة في محيطها، مُحتقرَة في دوائرها، محبوبة عند ساكنيها، الملاقيط تَجمُّع بشري روافده مختلفة وأحيانًا بعيدة، سُكِنَ هذا المكان لأسباب مُتعدِّدة، العامل المشترك قد يكون عدم وجود مكان آخر كمأوى.

الملاقيط، رغم ما يُقَال عنها، مكان يُغريك من بعيد بأشجاره الخضراء على الدَّوام حتى ليُخيَّل للمرء أنَّ التلوُّث لا مكان له في قاموس القاطنين فيه، يُغريك أيضًا بالبساطة في العيش، والإنسان، والتَّدفُّق البطيء للوقت والزَّمن، يُغريك أيضًا بالكرم الحاتمي الذي يُميِّز أُناسه البسطاء، وبعيون لا تنضب من التَّضامن، والتَّكافل بين الجميع.

مكان النَّشأة والولادة يظلُّ غالبًا موشومًا في القلب مدى الحياة، هيجان الحنين يزداد منسوبُه كلَّما ابتعدت المسافة بيننا وبينه، أَلِأنَّ القيم النَّبيلة التي زُرِعت فينا من تكافل، وتعاطف، وتعاون، وتعايش، وتسامح.. كانت من تلك الأرض؟! أم أنَّ مفعول الهواء الأول الذي استنشقنا له مفعول سحري داخل الذَّات؟! أو ربَّما للعاملينِ معًا،

المهم.. يظلُّ قلب الإنسان مُعَلَّقًا بعشق مسقط الرَّأس، حتى لو نظر إليه الآخرون نظرة احتقار وازدراء، هو مكان الولادة والنَّشأة وبداية تعلُّم السَّير في طريق الحياة الطَّويلة والشَّاقة أحيانًا، هو بداية البدايات في كلِّ ما يتعلَّق بالذَّات.

من هذا المكان، ساقني أبي إلى ذلك الحيِّ العتيق، ثم إلى مؤسَّسة التَّعاون الوطني التي تقع في قلب المدينة التي يحلو للبعض تسميتها بـ "باريس الصَّغيرة"، وتُجاور كل المؤسَّسات الكبرى الموجودة؛ إذ تتوسَّط المركز الرَّئيس للشُّرطة، وقصر البلدية مُشكِّلَة معهما مثلثًا كبيرًا، تُطِلُّ على الطَّريق الرَّئيسة المؤدِّية إلى العاصمة؛ إذ لا تبتعد عنها إلَّا بأمتار قليلة، ولا تفصل بينهما إلَّا محطَّة البنزين، هذا المكان شَكَّل انقلابًا وتحوُّلًا في مسار حياتي، منحها معنًى آخر، ودلالة فيما تبقَّى من سنوات عمري، هو الذي احتضنني وأعاد ولادتي، وتربيتي من جديد، ومنحني إكسير الحياة.

تحدُّها يسارًا أقدم قيسارية وأصغرها على الإطلاق، أما يمينًا فربَّما أول بناية ذات ثلاثة طوابق في هذه المدينة المُهمَّشَة، والمَنسية على الدَّوام، تتَّخذ شكلًا مستطيلًا، تضمُّ جناحًا كبيرًا للإدارة عند مدخل الباب الكبير، والتي تحتوي على مكتبيْنِ: المكتب الرَّئيس لمدير

المؤسسة، ومكتب مساعد المدير الذي يتواجد خلفه عبر نفق مظلم صغير، وفي الجهة المقابلة كانت هناك غرفة تُسمَّى "الخزين"، تُستعمَل لتخزين وتكديس السِّلع، والمؤونة التي كانت تصل في بداية كلِّ أسبوع، بعد ذلك مباشرة غرف مُتقابلة يفصل بينها فراغ كبير دون سقف لها نفس الشَّكل والهندسة، وفي أقصى ركن على اليسار يطلُّ مطعم واسع تفوح منه روائح الطَّبخ على مدار اليوم، روائح تزيد من وتيرة وجع الجوع، وتفتح أبواب الشَّهيَّة على مصراعيها، وفي الجهة المقابلة للمطعم نبتت مراحيض صغيرة، وضيِّقة بالكاد تتَّسع لشخص واحد، لا نقترب منها إلَّا عند الضَّرورة لروائحها التي تُزْكم الأنوف، والباقي غرفٌ للمبيت لها نفس الهندسة، والمساحة، اللَّونانِ: الرَّمادي والأبيض هما اللَّونانِ الطَّاغيانِ على المؤسَّسة بأكملها. تعايشتْ حاسة بصري معهما حتى ترسَّخ في ذهني أنَّ كلَّ مُؤسَّسات الدَّولة تحمل نفس اللَّونينِ، كان اللَّون الرَّمادي المغلوق غالبًا ما يُثير اشمئزازي إلى أبعد الحدود، لم أكن أعرف سبب نفوري منه، ولكنِّي كم تمنَّيت من أعماقي أن لا أراه، ربَّما لأنَّه كان يحتجز كآبتي، ويُغرقني في سوداوية حالكة كلَّما تأمَّلته، ولربَّما لأنِّي أذكر يومًا أنِّي رأيته لونًا مُوحَّدًا داخل أحد السُّجون التي أُتيحت لي زيارتها، هو من الألوان التي أراها تمتصُّ أشعة الشَّمس الذَّهبية لتُخفي نورها، وضياءها، وتحجب داخلها الأوساخ من كلِّ الأصناف والأنواع.

هنا أبت إرادة القدر إلَّا أن تستكمل شخصيَّتي مراحل النمو، والتَّطوُّر، بعيدًا عن رتابة البوادي، وموت الزَّمن فيها، وبعيدًا عن دفء الأسرة، والأمومة، ورعاية الأب ومسؤوليته، بعيدًا عن سطوة ظلام الجهل، وتعاسة الفقر المدقع الذي يعتبر ميزة وعلامة بارزة، ومصاحبة لشجرة عائلتي، الفقر الذي ظلَّ ينخر جسد أسرتي حتى صار الإرث الوحيد الذي تتوارثه أبًا عن جَدٍّ.

وقع الأفراد

لشدَّة ما أثار انتباهي، منذ أن اقتادني أبي إلى هذا الملجأ، هو شخصية "بَجيلالي"؛ فقد كان عين المؤسَّسة التي لا تزيغ، والعارف بكلِّ أسرارها وخباياها، لا تفوته أخبار، ولا تفاصيل التَّفاصيل عمَّا يدور في فلكها، ومحيطها، ومحيط العناصر البشرية المكلَّف بمراقبتها ليلًا ونهارًا، لا يَملُّ ولا يكلُّ من طرح الأسئلة التي كانت أداته الوحيدة للوصول إلى المعرفة، يرفُل في غياهب الجهل، والأمية، وينعم في شقاوتهما، يتلذَّذ بمعاقبة كلِّ مَن شقَّ عصا الطَّاعة، وفضَّل الانشقاق على محراب قوانين المؤسَّسة التي يعرفها أكثر ممَّا يعرف أركان الدِّين الذي يعتنقه، عمياء هي طاعته لمدير المؤَّسسة ونائبه، يعجز لسانه النُّطق بكلمة "لا" أمام أوامره ونواهيه، ولا يرفع رأسه في وجه المدير حتى، لا يُحدِّثه إلَّا وهو مُطأطِئ الرَّأس.

"بَجيلالي" كتلة من لحم بشري تمشي على الأرض، وكأنَّه استهلك خيرات البلاد والعباد كلها، عينانِ جاحظتانِ، وكأنَّهما كرتانِ من شحم

شديدة البياض، نظراته تُثير الرُّعب والهلع، عصا غليظة هي وسيلة عقابه، لا تُفارق يديه، ويُلقِّبها بـ"الحبيبة"، فكلَّما رام تهديد أحد يقول له وهو يرفعها إلى الأعلى: "سأستعمل معك الحبيبة". وفعلًا كان يستعملها في أحيان كثيرة بداعٍ أو دون داعٍ، أذكر أنَّه في الصَّباحات الباكرة حين كان يُريد إيقاظنا من النَّوم؛ يُحدث طقطقات متوالية رنَّانة بالعصا على الباب، كنت أستيقظ بسرعة مذعورًا، خائفًا، وَجِلًا..

فقد كان "بَّجيلالي" لا يتوانى في معاقبة كلِّ من استلذَّ سخونة الفراش..كانت العصا طويلة، صلبة، ومنقوش فيها اسمه بحروف بارزة.. يفتخر أنَّها مصنوعة من خشب الشَّوك.. تلك العصا كانت الوسيلة الوحيدة لفرض النِّظام والانضباط، والوسيلة الوحيدة للإقناع والاقتناع، كنَّا في مؤسَّسة التَّعاون الوطني نطلق على "بَّجيلالي" اسم "الحجَّاج "القائد الذي لا يرحم مَن يخالفه الرَّأي، الطَّاغية الذي دَوَّنَ اسمه بأحرف بارزة في لائحة طغاة الحضارة العربية.

في تلك المرحلة العمرية من حياتي، كان الخوف، والاضطهاد مُحرِّك السُّلوك، والفعل، والنُّطق في تلك الرُّقعة المُغلقَة عن العالم الخارجي، كان الخوف مُهيْمِنًا على كلِّ الأنشطة التي نقوم بها، حتى إنَّنا كنَّا نتحدَّث بصوت غير مسموع؛ لأنَّنا كنَّا على يقين أنَّ "لبَّجيلالي" عيونًا وآذانًا

بيننا، وفي أغلب الأحيان كان الأصدقاء لا يتحدَّثون إلَّا بالرُّموز المتداوَلة بينهم؛ كي لا يستوعبها إلَّا أقرب الأقربين..

إنَّنا جيل زُرِع الْخوف في داخلنا، وظلَّ حيًّا يُرزَق إلى يومنا هذا، ظلَّ شبحًا وكابوسًا شلَّ كلَّ حركاتنا وتحرُّكاتنا، كنَّا على إيمان كبير أنَّ لكلِّ مسؤول في مؤسَّسة التعاون الوطني حجاجه الباطني الذي قد يقتلعنا من المؤسَّسة، ويرمي بنا إلى شبح الشَّارع، وإذا كان الخوف استجابة لتهديد ما، فإنَّ كلَّ ما يحوم حولنا في مؤسَّسة التَّعاون الوطني، يُشكِّل تهديدًا حقيقيًّا.

من هذا الفضاء ورثت الخوف، وشربت من كؤوسه المريرة، حتى ترسَّب في أعماقي، وبات لا يُفارقني، يغتالني في مناسبات كثيرة، يمنعني من التَّعبير كما يحلو لي، يقف ضدَّ حُرِّيَّتي واندفاعي، ويسقيني من علقم التَّردُّد والحيرة..

جلباب ذو لون بني قصير الطُّول، هو ما يرتديه طيلة السَّنة أو السَّنوات، حتى ليُخيَّل للإنسان أنَّه لا يملك غيره، أما رجلاه فحذاء واحد لا يُفارقه إلَّا حين يُحِس بالألم في أخمص القدم، يقعد على الدَّوام على كرسيٍّ خشبي، يستجدِي الزَّمن كي يُنهي مهامه في الحياة، لم يُحافظ إلَّا على أرْجُله الحديدية، أما الخشب فتلاشى مع مرور الزَّمن، واسْتُبْدِل

بأجزاء قصديرية مقاومة لآثار التَّعرية، هذا الكرسي من الممتلكات العينية لبَّجيلالي التي تُقاوِم تعاقب السَّنين، وتظلُّ صامدة في وجه الجديد. لا يسمح بأحد بلمسه أو الجلوس عليه، كان يعتبره جزءًا لا يتجزَّأ من ذاته؛ لأنَّه سريره الذي ينام فيه ليلًا، ويَنْسُج فيه وَابِلًا من الأوهام والأحلام، أما في النَّهار فهو وسيلة الرَّاحة والاستراحة من عناء الوقوف والمشي داخل المؤسَّسة.

لا أدري كيف أحببت هذا الكرسي، فكنت كلَّما ولجتُ إلى المؤسَّسة أجدُ نفسي مشدودًا، مشدوهًا لرؤيته، وكأنِّي أراه لأول مرة في حياتي، أَلأنَّني أحنُّ وأُشفق عليه، وهو الذي يحمل كتلة لحميَّة بشرية زائدة عن طاقته؟! أم لأنَّ عيني أَلِفتْ وتعوَّدت على مشاهدته في أرذل شكل له؟! لا أعرف.. كلُّ ما أعرفه أنَّ إحساسًا عميقًا يجمعني بهذا الجماد العجيب حتى تمنيتُ في أحيان كثيرة أن يكون هذا الكرسي في ملكي لا في ملكية بَّجيلالي.

كانت نشوة السَّعادة تغمرني كليًّا، وكنت أعتبر نفسي أسعد إنسان على وجه البسيطة، حين يسمح لي الحارس بالجلوس عليه، في كلِّ مرة يأتي أبي لزيارتي، ويكرمه بدُرَيْهمات معدودات طمعًا في إكرامي بطعام إضافي، وتدليلي قدر المستطاع؛ فقد كان بالإضافة، أنَّه يشغل

مهام المراقبة والتَّسيير وبعض الأعمال الإدارية، مُكلَّفًا أيضا بالمطعم، فهو الذي يُنظِّم الصُّفوف للولوج إليه، ويأمر البعض بتوزيع الوجبات في الطَّاولات، وتنظيفها في نهاية كلِّ وجبة مقابل الزِّيادة في كميَّة الوجبات الممنوحة، كنت من بين هؤلاء؛ لأنَّ الوجبات الثَّلاثة لا تكفيني، فأنا أكولٌ بطبعي، شديد الشَّهوة للطَّعام بكلِّ أشكاله، وألوانه، تُغريني لذَّة الأكل، وتستهويني إلى حدٍّ لا يُصدَّق، أكان ذلك بسبب المرحلة العمرية من حياتي؟! أم بسبب نشأتي وحرماني من الشَّبع في أسرة كثيرة العيال؟!

كتبت في يومياتي عن هذا الرَّجل ما يلي: "هناك أشخاص يتركون بصماتهم على شخصيتنا، حتى لو كانوا لا يستحقُّون ذلك؛ إمَّا لقوَّة مناصبهم حينما تقاطعت طرقنا، أو لأنَّهم كانوا أكثر معرفة، واحتكاكًا، وتجربةً منَّا".

الشَّخصية الثَّانية التي ظلَّت عالقةً بذهني، ولن تستطيع السَّنوات الطَّويلة التي عشتها، مهما طالت، أن تُمحِيهَا من الذَّاكرة، هي شخصيَّة "مِفاطِمَة "التي لم تكن إلَّا تلك الطبَّاخة الماهرة التي تعشق الطَّبخ إلى حدِّ الجنون، وتجد فيه لذَّتها المفقودة في بيتها التي تعيش فيه وحيدةً إثر وفاة زوجها بعد صراع مرير مع المرض كما تحكي دومًا عنه، كانت تطبخ

وهي تغني بـ "الشلحة" لغة آباءها وأجدادها، كانت مِفاطِمَة قناة غنائيَّة لا ينقطع صوتها داخل المطبخ، وفي أسوء الأحوال كان يصلنا صوتها، وهي تدندن، تشتغل بحيوية، وحب، ونشاط لا مثيل له، حتى إنَّها كانت تطبخ في اليوم وجبات الغد، لا تنتظر تعليمات من أحد، ولا تحتاج إلى توجيهات، فشغلها كان مُتقنًا إلى حدِّ الكمال؛ تغسل، تُنظِّف، تطبخ، تكنس، تُساعد في توزيع الوجبات، ولا تبرح مكانها إلَّا لمامًا.

"مِفاطِمَة" زادٌ من القيم النَّبيلة التي لا يملكها إلَّا قلَّة قليلة من النَّاس، كانت بين الفينة والأخرى تُحاول غرس فينا هذه القِيَم، وتُحدِّثنا عنها كي نتشبع بها؛ لأنَّها تنزلنا منزلة أبناءها الحقيقيين، ربما لأنَّها كانت تحسُّ بأنَّها امرأة نَـزُور؛ فعدد أولادها لا يتجاوز الاثنين، مع توالي السَّنوات أصبحت علاقتي بفاطمة وطيدة إلى حدٍّ كبير؛ إذ كنت أجد في نفسي حماسًا منقطعَ النَّظير لرؤيتها عند ولوجي للمؤسَّسة، أو الخروج منها، كنت أستشيرها في كلِّ شيء، وأطلب مساعدتها في المسائل التي تستعصي عليَّ، كانت أمًّا بقلب كبير مملوء بالحبِّ، والحنان، والعطف، تؤازر المظلوم، وتقف ضدَّ المعتدي أيًّا كانت مكانته داخل المؤسَّسة.

أذكر في يوم من الأيام الآحاد القاسية عاد المدير، الذي كان الجميع يهاب أنفاسه، المؤسَّسة على غير عادته، فوجدني داخل المطبخ،

أُشارك "مِفاطِمَة "فطورها، وبمجرَّد أن رآني، قطب حَاجِبَيْه، ولم يتمالك نفسه، وقال بصوت بوليسي آمر، والغضب ينفجر من صوته كالبركان:

– ماذا تفعل هنا؟ اخرج.. لا تدخل هنا مرَّة ثانية.. سأطردك..

كانت كلماته كأنها صدى مسترسل يخترق السَّمع اختراقًا، ووجع لهجتها يُثير في النَّفس ألمًا واشمئزازًا، أُصبت بالذُّعر، واستبدَّ بي الخوف، وشعرت أنَّني أُهنْت أيَّما إهانة، وأنَّني ربَّما فقدت مكاني هنا. انتفضت مِفاطِمَة من مكانها، وردَّت عليه بشكل حاسم لا يقبل الشَّكَّ، ولا الجدال:

– قبل طرده عليك بطردي أولًا؛ لأنَّه طفل بريء، وثانيًا: أنا التي طلبت منه مشاركتي الفطور..

وقف متسمرًا في مكانه، هربت الكلمات من لسانه، ولم يعد يصدِّق أذناه، كيف يصدِّقُ، وهو الذي لم يصادف اعتراضًا، أو احتجاجًا منذ تعيينه على رأس هذه المؤسَّسة التي بات يعتبرها خاصيَّته، كانت الأسباب مُهيَّأة للطَّرد لكلِّ مَن سوَّلت له نفسه أن يُعارض سياسة تسيير المؤسَّسة، وتدبير شؤونها الدَّاخلية؛ لذلك لم يَتجَرَّأ يومًا

أحدٌ على الإفصاح بما لا يراه مناسبًا، كانت موضة الزَّمن تنحية كلِّ المعارضين، أو على أقل تقدير التَّشويه بسمعتهم والحط من قيمتهم.

منذ تلك اللَّحظة رسمت في ذهني لمفاطمة، صورة المرأة الحديدية التي تتحدَّى كلَّ شخصيَّات المؤسَّسة، وأنَّها الوحيدة القادرة هنا على المواجهة والتَّحدِّي، وأنَّها في الباطن أطيب من الظَّاهر، وأنَّ مواقفها قليلًا ما تُجَانِب الحقَّ والصَّواب، وأنَّ المرأة لا تُختزل في ذلك الكائن الطيّع، الودود، المسالم، الضَّعيف أمام سلطة وتَسَلُّط الرَّجل، وأنَّها أكبر من ذلك بكثير، إن هي أرادت واتَّخذت مسارها بنفسها.

مشكلة المرأة في مجتمعاتنا العربية هو ثقافي قبل كلِّ شيء، تُربَّى في أحضان ثقافة مجتمعية بالية جوهرها الطَّاعة والخنوع الإرادي لسلطة الرَّجل، أَهو تاريخ المرأة الدَّفين؟! أم تراكمات لقوانين وتشريعات فرضتها إرادة وسلطة الرَّجل على المرأة في مجتمع الكلمة العليا فيه للجنس الذُّكوري؟! أم أنَّ طبيعة المجتمع تُحدِّد للمرأة نوع التَّفكير، والسُّلوك والثَّقافة؟!

ورد في يومياتي عن هذه المرأة ما يلي: مفاطمة نيلسون مانديلا، هذا الملجأ غيَّرت تصوُّري للمرأة، ومنحتها مكانة خاصَّة رفعت من قيمتها، وبَوَّأتها مرتبة جديرة بها.

لم يكن هذا الحادث لِيمرَّ مرور الكرام، فقد أبى رئيس المؤسَّسة إلَّا أن يعقد اجتماعًا مُصغَّرًا موضوعه حادثة مِفاطِمَة، ويُدلي بِدْلوه لكي لا يظهر بمظهر المنهزم أمامها.

في قرارات أعماقه، كان يدرك جيدًا أنَّ المؤسَّسة في أمسِّ الحاجة إليها، ويعتقد جازمًا أنَّه من الصَّعب إيجاد بديل لها بنفس المواصفات؛ لذلك لم يكن واردًا اتِّخاد إجراء عقابي ضدَّها، الكلُّ في المؤسَّسة كان يَعِي هذه الحقيقة.

كان الاجتماع مُصغَّرًا وبسيطًا، لم يتجاوز زمنه نصف ساعة، كنت حاضرًا في الاجتماع باعتباري المسؤول الأول عن الحادث، كان ذهني مشتتًا، ولم أعِر كبير اهتمام لهذا الاجتماع، كنت أشاهد ضخامة المكتب وذاك الكرسي المتحرّك العجيب الذي يستجيب للتطلُّعات النَّفسية لصاحبه، ويسمح له بالحديث، وهو يميل في هذا الاتجاه أو ذاك كي يُخاطب المعنيَّ.

كما أثارتني تلك الكتب المرتَّبة ترتيبًا أنيقًا في كلِّ أرجاء المكتب، كأنَّ الموت اغتالها منذ زمن بعيد؛ إذ لا روح فيها، تشبه تلك الأجساد المدفونة في المقابر البعيدة، لم تتطاول عليها يد قارئ، ولا فحصتها عيون الفضوليين من القُرَّاء، ولا لمستها أيادي الزائرين، قرأت عناوين كتب لم

أكن لأدرك أهميتها في تلك المرحلة العمرية المبكّرة من حياتي، رغم ذلك ترسَّخت في ذاكرتي ولم تُفارقها أبدًا، فقد قرأت مثلًا: المقِّدمة لابن خلدون، والعصر العبَّاسي الأول والثَّاني لشوقي ضيف، والأيام لطه حسين، وعبقرية الصدِّيق للعقَّاد، وشرح المعلَّقات..

لم أَعِر أيَّ اهتمام لما يفوه به من كلمات التي لا تعدو أن تكون أوامر علينا تنفيذها دون اعتراض، كان ديكتاتوريًّا، مستبدًّا، سلطويًّا حتى إنَّه لا يسمح لنا بفتح أفواهنا أمامه، لا يعرف ولا يعترف بالرَّأي الآخر، ولا عرف يومًا أنَّ هناك كلمة تحمل اسم نِقَاش أو حوار، يعيش في برجه العالي بعيدًا عن كلِّ ما يُثير غضبه، ويكشف عن معدنه الخاص، ففي السَّنوات الطَّويلة التي عشتها في مؤسَّسة التَّعاون الوطني كنت لا أراه إلَّا مرَّة أو مرَّات في أوقات متباعدة؛ إما داخلًا إلى مكتبه أو خارجًا منه، لا يُكلِّم أحدًا إلَّا لمامًا، كان إذا احتاج إلى شيء ما، يُنادي "بَّجيلالي" باعتباره اليد اليمنى التي تُنفِّذ كلَّ طلباته وأوامره المُطَاعة.

في الاجتماع، ودون مُقدِّمات تليق بمقامه، أشار إليَّ بسبَّابته وكأنَّه يُهدِّدني: لن تتناول وجباتك لمدَّة ثلاثة أيام، هذا هو عقابك، وقد كنت متسامحًا معك بشكل كبير.

قالها بلهجة حاسمة، مباشرة، تقريرية، لا تقبل الجدل، ولا النِّقاش، كان بإمكاني أن أقول أشياء كثيرة، أقول مثلًا :"إنَّني لا أستطيع صبرًا مع الجوع الذي سيفترسني افتراسًا، ولن أستطيع مواكبة دراستي بأمعاء فارغة، ولن يستطيع جسدي الصَّغير مقاومة البرد بدون طاقة..و..و.."لكن بريق عينيه الواسعتين الذي يلمع كالبرق وسحنة وجهه الجافة، والخالية من كلِّ آثار الرحمة والشَّفقة، كأنَّها جلد جيفة، وأوامره المسترسلة ألزماني السُّكوت والصَّمت على أمل إيجاد حلٍّ فيما بعد، التزمت الصَّمت التَّام، وكأنَّ ورمًا خبيثًا أصاب حَلْقي ومنع خروج الكلمات والحروف، وما عسى السَّجين أن يقول أمام جلَّاده؟ والواهن أمام الأشدِّ قوة؟

حوَّل نظره إلى مِفاطِمَة بسرعة فائقة، ورفع حاجبيه الممتلئة قائلًا بلهجة أقل حدَّة وتوتُّرًا:

– أنت لا تعرفين هؤلاء الشَّياطين أكثر منِّي، فلا أحد منهم يستحقُّ الثِّقة؛ إنَّهم مزيج من اللُّقطاء وأبناء الشَّوارع، و"عيبك" الوحيد أنَّك طيِّبة، وحنونة، ومرهفة الأحاسيس. سكت لِيَأخذ نفسًا جديدًا، فقد كان يتكلَّم، وكأنَّه يُلقي محاضرة في مدرج في الجامعة، أو خطيب

يُلقي خطبة الجمعة، ثم تابع كلامه، وهو يُحرّك عينيه "العسليتين" في كلِّ الاتجاهات:

– إذا سمحت لأحد بالدُّخول إلى المطعم، فحتمًا سيدخل آخرون، وحينها ستقع الفوضى والسَّرقة، وسيخلُّ نظام المؤسَّسة، هذا يجعلك تتحمَّلين كامل المسؤولية، إنَّ هذه المؤسَّسة لها نظام داخلي على الجميع احترامه والتقيُّد به بمن فيهم أنت، ومن قوانين هذا النِّظام عدم الولوج إلى المطبخ لأيِّ سبب من الأسباب، أعتقد أنَّ كلامي واضح ورسالتي مفهومة، سأخصم من راتبك أجرة يوم كامل عقابًا لك.

استدار على يمينه حيث كان بَّجيلالي جالسًا، وصوَّب إليه عينيه الواسعتينِ اللَّتينِ تحملان غضبًا من نار ملتهبة، قائلًا له:

– لم يخطر ببالي أبدًا أنَّه يمكنك أن تسمح لوقوع مثل هذه الأخطاء السَّاذجة في مؤسَّسة تتنفَّس نظامها وقوانينها، وتعيش فيها ومن خيراتها، أنت الحارس الأمين والمراقب لكلِّ ما يجري في المؤسَّسة، أنت عيوني هنا، فكيف تسمح للآخرين بتجاوز القوانين؟!

وكعادته لم ينتظر ردًّا على سؤاله، وواصل الحديث بنبرة لا تخلو من الجدية:

– في غيابي أو حضوري، أنت المسؤول المباشر عمَّا يقع داخل المؤسَّسة من تجاوزات، فأنا مهمَّتي داخل المكتب وأنت خارجه، هذه الأمور لا شكَّ أنَّك تحفظها عن ظهر قلب، لا حاجة لي بتذكيرك، ومن اليوم فصاعدًا، أيُّ خطأ آخر سيكون مُكلِّفًا لك، لن أتسامح معك، اعتبرْ هذا إنذارًا أخيرًا.

أنهى كلامه بلهجة فيها من الحدَّة والصَّرامة ما جعلنا نرتعش خوفًا، ولا ندخل معه في نقاش أو جدال، لم ننتظر طويلًا لنسمع منه: "انصرفوا"، وهي تحمل خشونة زائدة لا تُطاق، وأمر يجب أن يُنفَّذ في الحال، ظلَّ رنينها يصدح في ذهني لأمد طويل: "انصرفوا "، قالها بصوت وتأكيد بإشارة من يده الطَّويلة، ووجهه العبوس الذي يحمل تجاعيد تزيد من تعابير وجهه، وتزرع هلعًا كبيرًا في مُحاوِريهِ.

غادرنا المكتب، مُطأطئين الرُّؤوس، كلٌّ واحد يعرف ما عليه القيام به، ويُفكِّر في هول المصيبة التي نزلت عليه كالصَّاعقة.

وبمجرَّد ما أن استلقيت على ظهري فوق السَّرير حتى أحسست بالجوع يزور أمعائي. ورويدًا رويدًا بدأ يشتدُّ وتتصاعد شدَّةُ ألمه، كأنَّه يعضُّني بأنيابه الحادة، ويغرسها في جسمي، كما لو أنَّه يُريد أن يفتك بي، وكم هو ثقيل ومضنٍ زيارة الجوع حين لا تملك ما يسدُّ به الرَّمق، يصبح

عبئًا ثقيلًا لا يسمح لك بالتَّفكير في شيء آخر سواه، تملَّكني إحساس غريب، وأنا أسترجع لحظة نطقه بالحكم الجائر: "لن تتناول وجباتك لمدَّة ثلاثة أيام"، إحساس يُسائل عنف الأشخاص، وحدود قساوتهم على أشخاص آخرين، ما الذي تغيَّر في الإنسان حتى لا يزيد إلَّا ابتعادًا عن قيم الخير؟ تساءلت ماذا لو كان ابنه هو الذي ارتكب هذا الخطأ القانوني والأخلاقي كما سمَّاه؟ هل يصدر نفس الحكم القاسي عليه؟ أم يجد له "تَخْرِجَة" ومراوغة قانونية؟ ما الذي يجعل الإنسان يعنف ويقسو على إنسان آخر؟! أهي طبيعة إنسانية، كلَّما علا شأن الإنسان واستغنى طغى؟! أم الأمر لا يعدو أن يكون مُشكلة ثقافيَّة ليس إلَّا؟ ألم يشر إلينا في الاجتماع بأنَّنا أبناء شوارع ولُقَطاء؟ أليس هذا كافيًا بأن يعاملنا بهذا المنظور، وانطلاقًا من هذا التصوُّر؟!

كانت الأسئلة تتساقط في ذهني كزخات، كما لو أنَّها أمطار الربيع، ولا تتوقَّف إلَّا لتبدأ من جديد، كانت تستفزُّ كلَّ أحاسيسي وشعوري، في لحظة شعرت بدمعة باردة تنسكب على خدِّي، تبعتها دموع أخرى غزيرة؛ لأنِّي أحسست بالإهانة والظُّلم والحيف الاجتماعي إزاء وضع جائر لا أحد فيه يمكنه مساعدتي ودعمي، لكن هيهات فكما يقول دوستوفسكي:"الدُّموع عاجزة عن دفع الشَّقاء".

كنت أجترُّ همومي وأحزاني وحيدًا رغم سنِّي الصَّغير، إنَّ مِفاطِمَة وبَّجيلالي اللذينِ كنت أُعَوِّل عليهما في مثل هذه الظُّروف، نالَا نصيبهما من تركة العقاب، ومضاضة الظُّلم الذي حاق بنا، وشربنا سويًّا من نفس الكأس، فبمن أستجير لرفع هذا الحيف الذي طالني؟ وإلى متى سأتضوَّر جوعًا دون رحمة ولا شفقة؟

كانت الحياة في أحيان قليلة تُذيقني من أكواب السَّعادة والهناء التي كنت أنعم بلحظاتها، فحين تصفو سمائي؛ يزهر داخلي، وينشرح صدري لترتسم الابتسامة في ثغري وكأنَّها لازمة لا تُفارقني.. أنزع الهموم من داخلي وأنثرها خلفي بعيدًا، فالسَّعادة لا تُمنَح من أحدٍ ولا تُعطَى ولا تُأخذ..

السَّعادة إحساس ينبع من باطن الأعماق كما الأشياء الثَّمينة تنبع.. السَّعادة فيض يبرق فيُضيء ما ظهر وما خفي.. في لحظات أنعم من رغدها الذي يتبخَّر أسرع ممَّا أتوقَّع.

في المقابل، كانت الحياة ترويني كؤوسًا مُعتَّقة من حنظل الأيام في أحيان كثيرة فأُواجه، بما أملك من سلاح، لحظات المرارة والشَّقاوة بقوَّة وعزم وصبر باعتبارها جزءًا لا يتجزَّأ من وجودنا وعيشنا في الحياة، كنت أقول في نفسي، حين تشتدُّ الضَّربات والنَّائبات من كلِّ مكان: "لا بُدَّ

أن تبقى واقفًا، حتى لو داهمك الموت يا أحمد.. لا بدَّ أن تموت واقفًا كالشَّجرة.. ليس لك أحد تتَّكئ عليه".

مِفاطِمَة، رغم مظهرها الخارجي الذي يُوحي بالسَّذاجة والغباء، بلباسها التَّقليدي الأصيل ووقفتها القريبة من الانحناء، نادرًا ما كانت تأبى أن تستجيب لنداء وقوَّة الأوامر، فقد كانت تقول: إنَّ كلمة الأمازيغ هي مرادف للحريَّة والهروب من العبودية، هي الانعتاق من جبروت الظُّلم والتظلُّم، وهي من طبعها الأصيل كانت تأبى أن تدخل اللُّقمة إلى بطنها من ذلِّ المهانة والاحتقار، فردَّدتْ أكثر من مرَّة: "طرف من النَّفخة يعيش"؛ لذلك تعمَّدت إرسال كل وجباتي خفية مع شخص، مخلص لها، وَفِيٌّ، تضع ثقتها كاملة فيه، كانت تقول أيضا مرارًا: "أفعل ما يرضيني ويُرضي ضميري، وليقع ما يقع".

كانت تبعث لي ما يسدُّ الرَّمق في سريَّة تامَّة، لكنَّ هذه الوجبات كانت تصلني متأخِّرة عن الجوع الذي يسبقها بزمن غير قصير، حتى بَّجيلالي الذي كان يقضي معها أوقاتًا طويلة – حتى قيل: إنَّ هناك عشقًا يجمع شملهما– يجهل هذا الأمر، يجهل تماما أنَّها تُرسل إليَّ طعامًا، وتعتني بي رغم صرامة تهديدات رئيس المؤسَّسة، إنَّه نوع من التَّحدِّي الذي كان شعارها الخالد في مثل هذه المواقف.

أما بَّجيلالي، فبات يتجاهلني، وكأنَّه لا يعرفني، يتعمَّد عدم النَّظر إليَّ كلَّما رآني قادمًا في اتجاهه، ولم يُكلِّمني منذ ذلك الاجتماع اللَّعين، أكان ذلك بسبب الإنذار الأخير الموجَّه إليه؟ أم أنَّه كان يحمِّلني مسؤولية تدهُّور علاقته برئيس المؤسَّسة؟ أم بسبب طبيعته النَّفسية التي تقبل الخنوع والخضوع لدرجة لا تُصدَّق؟ حتى حينما زارني أبي، اختفى، ولم يظهر له أثر أمام الباب.

لم يُجانب الصَّواب من قال بأنَّ "في كلِّ إنسان نعرفه، إنسان لا نعرفه". الإنسان سرٌّ من الأسرار العجيبة التي تستعصي على كلِّ العلوم أن تصل إلى حقيقته وعمقه وجوهره في بعده الشُّمولي الكامل، ألم يقل دوستوفسكي: إنَّ الإنسان سرٌّ بالنِّسبة لي، وهذا السرُّ ينبغي أن يُفسَّر، أن يُشرَح، وسوف أمضي حياتي كلَّها في البحث عن هذا السرِّ..

كتبت في مُذكِّرتي ما يلي:

لا شيء يمكن أن يُعلِّم الإنسان أحسن من المصائب والأحداث التي يتورَّط فيها، هي خير مُعلِّم، وخير مادَّة تعليمية؛ لأنَّها نابعة من الحياة، والتَّجارب التي نعيشها.

بَّجيلالي شخص فريد، وغريب الأطوار، غليظ القلب، ومُتقلِّب المزاج، يظهر أحيانًا في صورة شيطان خاصَّة حين يكون غضبان، ويلبس ثوب الملائكة حين يكون مزاجه في حالة بهجة وسرور وفرح.

أما مدير المؤسَّسة لم يكن له إلَّا همٌّ، وشغل واحد، هو شغله الشَّاغل: كيف يُحقِّق الفائض عن حاجيات المؤسَّسة؟ من أجل ذلك كان لا يَملُّ ولا يكلُّ من طَرْق كلِّ الأبواب المتاحة، كانت السريَّة التامَّة أسلوب عمله، لا أحد يعرف كمية السِّلع المُرسلَة، ولا الموهوبَة إلى الملجأ، ولا أحد يعرف الكمِّيَّات المُستهلكَة، كان ما يشبه الفوضى الهدَّامة تغلف تسيير وتدبير هذه المؤسَّسة، فحينما تُوضَع جميع السُّلْطات في يد شخص واحد لا يمكن أن تكون النتيجة إلَّا الخراب والهدم؛ لأنَّ الإنسان بطبعه أناني، نرجسي يحبُّ ذاته أكثر من الآخرين، يصعب أن يكون عادلًا، ويقضي مصالح الآخرين دون أن تستهويه مصالحه الذَّاتية، وتتجذَّر فيه هذه النَّزعة والميل إلى ما هو شخصيٌّ.

ورغم تلك السريَّة، كان كلُّ مَن في الملجأ يعرف حقَّ المعرفة، أنَّه سارق محترف، وناهب خيرات هذه المؤسَّسة رغم شكل التَّديُّن الذي يظهر على سلوكه، وأقواله، ومظهره الخارجي، ورغم ادِّعاء الوطنيَّة التي يحلو له في أكثر من مناسبة التبجُّح والإفتخار بها، كان "يُنْهَى" إلى

مسامعنا، أنَّه اشترى منزلًا في هذه المدينة أو تلك كلَّ سنتين أو ثلاثة سنوات، لم يكن لهذه المؤسَّسة رقيب ولا حسيب؛ لذلك وجد ضالته في النَّهب، والاختلاس إلى درجة أنَّها في أحيان كثيرة وقفت على حافة الإفلاس!

إنَّ ما أكتبه هو نوع من تاريخي الشَّخصي الذي بدوره يتصادف مع تواريخ أناس آخرين، كلُّ واحد منَّا لا يمكن أن يتفاعل وينفعل إلَّا بوجود أفراد آخرين، يظلُّ كلُّ فرد شاء أو أبى مُنفتحًا عن مجتمع يحتضنه، ويعيش داخله. من هذه القناعة يأتي حديثي عن هؤلاء الأشخاص الذين احتواهم نفس المكان، في نفس الزَّمان.

يومها كتبت في مُذكِّرتي ما يلي:

مهما بلغ الإنسان من مكانة ورتبة في السُّلَّم الاجتماعي، يظلُّ مُتعطِّشًا إلى المزيد من المال؛ لأنَّ له سحره الخاص، لا يرتوي ما دام الجشع طبيعة إنسانيَّة.

وإن كنت أنسى فلن أنسى أبدًا الغرفة رقم ثلاثة المخصَّصة لتلاميذ الإعدادي والثانوي، والملقَّبة بغرفة "الشَّياطين والجنّ"؛ لأنَّها مصدر دائم للإزعاج ومنبع لمشاكل المؤسَّسة، وهموم المسؤولين فيها،

هي غرفة ذات شكل مستطيل تحتوي على أسِرَّة بطابقينِ وأغطية متشابهة، تضمُّ مراهقين من أعمار، وأشكال، وهيئات مختلفة، ومتباينة كليًّا، منهم مَن قدم مِن قرى وروافد قريبة، والبقية التحقتْ من أقصى المناطق، كان تواجدي بينهم، وأنا أصغرهم سنًّا وقامةً؛ يمنحني إحساسًا داخليًّا عميقًا بأنَّني ما عدت طفلًا صغيرًا، بل أصبحت رجلًا بالمعنى المتعارف عليه بيننا، لكنَّهم، للأسف الشَّديد، يُنادونني داخل الغرفة وخارجها بـ"الرُّويجل "كتصغير لكلمة رجل، بهذا اللَّقب كنت معروفًا ومشهورًا، كانوا يرون أنَّ رجولتي لم تكتمل بعد لصغر سنِّي وقامتي، وكان كلُّ مَن في الغرفة يجزم أن مكاني الحقيقي ليس بينهم، إنَّما في غرفة الصِّغار التي استقبلتني في السَّنوات الأولى، وأنَّ تواجدي هنا هو خطأ ليس إلاَّ، كنت أنزف نفسيًّا كلما خدشت سمعي كلمة "رويجل"، بل كنت أذهب إلى المرحاض لكي لا يراني أحد، وأبكي هناك بدموع غزيرة، فأغسل وجهي ثم أعود، وكأنَّ شيئًا لم يحدث.

كنت لا أقبل سماع لقبي؛ لأنِّي أرى فيه نوعًا من الاحتقار والتَّهميش والإقصاء، أفتعل المعارك والخصومات مع الكبار حتى أحظى بقدر من الاحترام والتَّقدير من البقيَّة، لكنَّ الكلَّ يرفض رفضًا قاطعًا الاعتراف بوجودي، وهناك من يُشكِّك أنَّ وجودي بينهم هو مِن صنع وهندسة "بَّجيلالي"؛ كي يخترق زعماء الفوضى، والبلبلة داخل

الغرفة،كان اللَّقب الثاني الذي حملته فيما بعد dst"اختصارًا لما يطلق عليه بالفرنسية direction de la surveillance du territoire.

كنت لا أُطيق صبرًا كلَّما سمعت أحدهم يُناديني بهذه الكلمة التي تحفر ارتجاجة في أعماقي، فأكتوي بلهيبها الحارق، وأغرق في نهر من الدُّموع؛ لأنَّ ثِقَل هذه التُّهمة أكبر وأقوى وأشد تدميرًا، الأغلبية تُمارس عليك التَّهميش والإقصاء؛ فتعيش في عزلة تامَّة منبوذًا وحيدًا بدون علاقات اجتماعية، ولا صداقات إنسانيَّة.

حالة حيَّة من التمزُّق العميق والغائر، والانشطار، والتفتُّتُ، تُصيبني كلَّما أرخى اللَّيل سدوله، وأُطْفِئت المصابيح في وقتها المعتاد على السَّاعة العاشرة ليلًا، فتصبح الغرفة مظلمة آنذاك، كنت أسمع في كلِّ مرَّة صوتًا يصعب تحديد مصدره يُنادي تارة "رويجل"، وتارة أخرى ومن مكان آخر "dst"، أبقى جامدًا في مكاني، ثابتًا في فراشي، والأسى والحسرة تسكنني، فلا أستطيع تحريك ساكن.. قهقهات عديدة تتعالى، وضحكات لا تنتهي إلَّا حين يسمع قدوم بَّجيلالي، وهو يضرب عصاه على الأرض، فيُخيم صمت قبوري رهيب في الغرفة المظلمة، فلا أكاد أسمع إلَّا أنفاسهم، وبعض الحركات القليلة، والمتباعدة، يطلُّ من

النَّافدة يتنحنح بصوت جهوري، ويقول جملته المألوفة: "غدًا، سأحاسب الفوضويّين بنفسي"، ثم يعود إلى مكانه قرب الباب الكبير.

لا شيء يحول بين الهمز واللَّمز إلَّا سلطة العياء والنَّوم، كنت كلَّما غلبني النَّوم أغوص في أحلامه، وكوابيسه، لا أكاد أسمع شيئًا، وكأنَّ بي صممًا، كلُّ حواسي الخمس تقريبًا تتعطَّل أو لا تشتغل كفاية، أجد دومًا لذَّة عظيمة، وأنا أغطُّ في سبات سقراطي عميق، نومي هو موت مُحدَّد في الزَّمان والمكان، أليس النَّوم شبيه الموت؟! الفرق بينهما أنَّ الأول يُريحُ الجسد من التَّعب كراحة مؤقتة، والثَّاني راحة أبدية للرُّوح والجسد معًا.

هكذا كانت تنتهي اللَّيالي، وتمرُّ الأيام، والأسابيع، والشُّهور.. بعد السَّنوات الأولى أصبح وجودي وتواجدي بينهم أمرًا مألوفًا، ومعتادًا، ولا يُحرج أحدًا على الإطلاق، بل صار في حكم المستحبِّ والضَّروري؛ لأنِّي أُقدِّم لهم خدمات مُتعدِّدة، ومُتنوِّعة، سواء كانت دراسيَّة أو ماديَّة..

غرفتي كان لها حجَّاجُها الخاصُّ، يتحكَّم في كلِّ صغيرة وكبيرة، وكلُّ ما يدور في فلكها كان بمشورته، يمنح الحقَّ وينزعه، يُمارس الظُّلم والعدل متى شاء، كان صاحب الكلمة العليا في هذا المكان، طويل

القامة، مفتول العضلات، أسمر البشرة، عصبي المزاج، ذو طبيعة انتقاميَّة، لا أحد قادر على مواجهته أو مخالفته، يُمارس قانونه الغابي خارج المؤسَّسة على كلِّ مَن سوَّلتْ له نفسه عدم الخضوع لقوانينه المسطَّرة، والمعلَّقة قرب مكان نومه، كان إذا نام ينام كلُّ مَن في الغرفة، وإذا ضحك يضحك كلُّ مَن فيها، وإذا كان حزينًا يجب أن يحزن الجميع، أمَّا إذا جاع فيجب على الجميع التَّضامن من أجل إشباعه، كلُّ ما في الغرفة هو ملكه بشكل أو بآخر لا لشيء إلَّا لأنَّه يُوجد في مجال مملكته.

كان يصرخ بأعلى صوته: "أنا الحاكم الوحيد هنا"، يستمدُّ قوته ونفوذه من بَّجيلالي؛ لأنَّه ابن أخته الوحيدة التي قُتلت في ظروف غامضة، اسمه عادل، وكان من العدل أن يُسمَّى ظالمًا؛ لأنَّ كلَّ أفعاله وأقواله تفوح منها رائحة الظُّلم والطُّغيان والاستهتار بالآخرين، حقيقة هناك أسماء تحمل عكس مُسمَّياتها، فأيُّ عدل يرمز إليه عادل؟! عديدة هي المرَّات التي انتزع منَّا أجمل ما نملك من الثِّياب ليرتديها عدد الأيام التي رغب فيها، وانتزع منَّا نقودنا، لنُدرتها وقلَّتها؛ ليمارس بها رغبات اللَّهو التي لا يردعها رادع، لا شيء يصعب عليه، يستهزئ بالآخرين في كلِّ الأوقات بمساعدة ثلَّة من المرافقين الأقرب إلى عقليته، كان السَّبب الحقيقي وراء كلِّ صغيرة وكبيرة.

كان بَّجيلالي يتستَّر عن كلِّ ما يقع في الغرفة من فوضى؛ لذلك كان معينًا على هذا الظُّلم ومُساعدًا له؛ لأنَّه على علم أنَّ ابن أخته وراء ما يجري.. يقال: إنَّه لا فرق بين الظَّالم والمتغاضي عن الظُّلم، لذلك كنَّا نعتبر أنَّ بَّجيلالي ظالمٌ كابن أخته، من حسن حظِّنا أنَّ سنتنا الأولى في الغرفة صادفت سنته الأخيرة في الملجأ، فلو مكث أكثر لهجر الكثير ذاك المأوى الوحيد لمن لا مأوى لهم، ولفقد الغالبية نعمة الاستمرار في مواكبة التَّحصيل والدِّراسة، الظُّلم يخلق نوعًا من اللَّا أمن، واللَّا استقرار، والخوف الدَّائم من المجهول، كما يخلق نوعًا من الارتباك النَّفسي والذِّهني لدى الأفراد، هذا ما فعله الخوف بي تمامًا، فقد أضفى على شخصيَّتي نوعًا من الاضطراب في القول والفعل، لا أستطيع التَّعبير بطلاقة، أجد في حنجرتي حاجزًا يمنع مرور الكلمات والحروف، يُعيدها من حيث انطلقت.

ولعلَّ هذه البيئة هي التي أنتجت تلعثمي، وضعفي الشَّديد في التَّعبير، على مستوى الفعل أيضًا غالبًا ما تردَّدت وأتردَّد في ممارسة أيِّ نشاط فعلي، أحتاط كثيرًا من النَّتيجة، وأخاف من النِّهايات المؤلمة، وأستصغر نفسي أمام أيِّ فعل مهما كان تافهًا، ألم يقل المفكِّر الكبير ابن خلدون –وكان مُحقًّا في ذلك– أنَّ الإنسان ابن بيئته؛ لأنَّه يرتوي

مـن ثقافتهـا وسـلوكها وطباعهـا، وهـي مـن تصـقله وتضـع فيـه ألـوان جغرافيَّتها ومناخها؟!

بيئـة الظُّلـم والفسـاد لا يمكـن أن تنـتج إلَّا ظُلَّامًـا ومُفسـدين، وهـؤلاء بـدورهم لا يمكـن إلَّا أن يستنسـخوا نسـخًا مـنهم في السُّـلوك والأفعال والأقوال، وهكذا تصبح البيئة كلها فاسدة، بل يصبح الصَّالح طالحًا، فالأمانة لن تجد أمينًا يُحافظ عليها، والعدل لن يجد عادلًا يعمل به، وحتمًا تختفي كلُّ القِيَم النَّبيلة من تعايش وتسامح وتضامن.. بيئة التَّعاون الوطني غابة كبيرة يبتلع فيها، من له مخالب وأنياب طويلة، الضُّعفاء، وغير القادرين على المواجهة، والمستسلمين الذين اختاروا مضطرين الخنوع والخضوع.

في هذه البيئة.. الدِّين لا يتجسَّد في السُّلوك، يعيش بعيدًا عن جسد الواقع المعيش، تحسُّ بأنَّ هناك مسافة شاسعة تفصل بينهما، بل يجب أن يخدم الدِّين هذه الطغمة المتسلِّطة في الملجأ وإلَّا ضرب به عرض الحائط، الدِّين يخدم الأقوى الذي يتحكَّم في زمام الأمور، إنَّ مثل هؤلاء من يضمنون الحياة والتَّواجد للدِّين نفسه.

كنت أرى في هذه المؤسَّسة التي تؤويني نسخة مُصغَّرة لمؤسَّسات المجتمع الأخرى؛ فهي أيضًا تحترق بلهيب الأوجاع الاقتصادية، وترزخ

تحث وطأة أنين هشاشة الأوضاع، وتخضع لقوَّة إملاءات المموّلين وأصحاب النُّفود والقرار، لم تكن هذه المؤسَّسة مستقلَّة بشكل كامل، كانت مصادر تمويلها مُتنوّعة ومُتعدِّدة، فتارةً المجلس البلدي، وتارةً أخرى جمعيَّات المجتمع المدني، أو شخصيات نافذة؛ لذلك كان تسييرها وتدبيرها يُعاني تحت منطق هذا التَّعدُّد والتنوُّع؛ لهذا السَّبب أُؤمِن بأنَّ الاستقلال الحقيقي لا يتحقَّق إلَّا بالاكتفاء الذَّاتي من كلِّ الحاجات، والاحتياجات الضَّرورية والأساسية، وعلى رأسها التَّغذية أو الأمن الغذائي الذي لا يتحقَّق إلَّا بتوفير ما يحتاجه أفراد المجتمع من الحاجيَّات الغذائية؛ بالاعتماد على الذَّات أساسًا، وليس على جهات أخرى، وذلك بتوفير السِّلع بأسعار في متناول الجميع، أو تقديمها على شكل معونات للمعوزين، والمحتاجين، والفقراء بشكل دائم ومستمر، وليس فقط وقت المناسبات والأعياد.

من الدَّاخل كانت الجروح أقوى وأشد نزيفًا، فعديدة هي الظَّواهر المستشرية في أوساط المراهقين الذين ينتسبون إلى هذه المؤسَّسة، ولعلَّ أبرزها على الإطلاق، ودون منازع هي مسألة النَّظافة داخل الغرفة المخصَّصة للنَّوْم، فقد كانت الرَّوائح الكريهة تستقبلنا استقبالًا حارًّا عند أيِّ دخول إليها: الرَّائحة المنبعثة من الأحذية التي لا تُفارق الأرجل إلَّا ليلًا، ومن الأباطي، والأفواه التي لا تعرف الغسيل إلَّا لمامًا، والرِّياح

العاتية التي لا تتوقَّف عن الخروج عندما يخلد الجميع للنَّوم، عديدة ومتنوعة هي أسباب انعدام النِّظافة، لكن يبدو لي أنَّ العنصر البشري هو العامل الرَّئيس.

إنَّ الإيمان بأهمية النَّظافة يقتدي وعيًا وإدراكًا من طرف الإنسان، وتحقيقها على أرض الواقع رهين بهذا الوعي والإدراك. النظافة هي فكرة قبل أن تكون فعلًا وتطبيقًا..

تعوَّدت على شكل الحياة في هذا الفضاء، حتى إنِّي في كثير من الأحيان، حين أسافر إلى قريتي، أشتاق إلى تلك الرَّوائح التي أَلِفَتْها حاسَّة شَمّي.. كنت أحسُّ أنَّ شيئًا ما ينقصني، حينما لا أنام في تلك الغرفة التي بات النَّوْم فيها مخدرًا تستطيبه حواسي، ومُسكرًا يُهدِّئ أعصابي، أصبح حاجة نفسية لا غنى عنها، كنت كمدمن مخدرات، يعرف أنَّها غير صالحة ومُضرَّة، ولكنَّه يشتهيها كما لو أنَّ الحياة تستحيل بدونها، ألفتها حتى صارت عطرًا يُؤنس وجودي وتواجدي في غرفة نومي.

من هول المعاناة أيضًا وأصعبها على الإطلاق مسألة الجنس؛ "الطَّابو" الذي لا يتمُّ الحديث عنه إطلاقًا، ولا يُفتح حوله نقاش أو حوار، ولا نملك حوله من أفكار إلَّا ما هو موروث، ومُرسَّخ في الذَّاكرة

الجماعية، رغم أنَّه لم يعد كافيًا، ولا مناسبًا لما نعيشه ونحياه، فليس هناك ثَمَّة موضوع شغل بالي، وشَكَّل وحشًا يعيش بداخلي، ويُمارس عليَّ باستمرار عنفًا جارفًا طيلة عمر المراهقة كمسألة الجنس، كان في تصوُّري أنَّ النِّساء جنس يسير في الطَّريق، كان وهمًا لا يُفارق خيالي.. اعتقادٌ ترسَّب في لا وَعْيِي، شكَّل فوضى حقيقية في نطاق تفكيري، كنت ألهث كالكلب وراء كلِّ فتاة تحمل قسطًا من الجمال، رغم أنِّي لا أملك أيَّ صفة تجذب النِّساء إليَّ، وأملك كلَّ الصفات كي أكون منبوذًا لديهم، عشت في عالم من الخيال طيلة حياة المراهقة، وإذا كان الجنس كما أشار إلى ذلك فرويد هو مُحرِّك الإنسان والعالم، فإنَّه كان بالنِّسبة لي بمثابة الكرة التي تتحكَّم في انتباه اللَّاعبين، وحركاتهم وكل حواسهم.

الجنس مُحرِّكي ودافعي في الفعل والقول.. وهو من أكثر الشَّهوات تعقيدًا في حياتي وحياة الإنسان، هاجس كان يعيش بداخلي على الدَّوام.. يستفزُّني، يُكبِّل تفكيري، يُحاصرني، يلتفُّ حولي كما يفعل العنكبوت بضحاياه..

لا أحد غيري يستلذُّ استرجاع تلك اللَّحظات الماضوية بغيومها الحالكة، وبؤس واقعها القاسي. ومرارة عنفها المعنوي؛ لأنِّي على إيمان قوي أنَّ القساوة دومًا هي من تصنع الإنسان، والمعاناة هي من تبني

جذوره وجدرانه لكي يظلُّ شامخًا، مقاومًا لكلِّ الصِّعاب، فحتَّى الأنبياء لم يحيدوا عن هذه القاعدة، ألم يُعَانِ كلُّ الأنبياء، بدءًا من نوح ﷺ، مع قومه؟ وموسى ﷺ مع الطَّاغية فرعون؟ والرَّسول ﷺ مع قبيلته وعشيرته؟

ولنا في التَّاريخ نماذج كثيرة لا تحصى ولا تعدُّ؛ فطه حسين صاحب "الأيام" الذي كان مكفوفاً، والعقَّاد الذي تلقَّى التَّعليم الابتدائي فقط، وبيتهوفن الذي عانى من الصَّمم أبدع ألحانًا وسطَّر واحدة من الملاحم الكبرى في تاريخ الموسيقى، وفان غوخ الذي عانى من الجنون النَّاتج عن العبقرية، والذي تعتبر لوحاته الأشهر والأغلى في تاريخ الفن.. واللَّائحة طويلة وطويلة جدًّا.

ما ورد في يوميَّاتي:

"من الصِّعاب، والآفات، والأخطاء يتعلَّم الإنسان، ويبني منسوب صبره، وتحمُّله لنوائب الدَّهر والزَّمن.. منسوب المقاومة والقدرة على التَّحدِّي يبني حائط صموده وصمام أمنه وأمانه ضد الإحباط والاكتئاب والاغتراب وكلِّ أشكال العنف المعنوي التي تصادف طريقه في الحياة "وحش الجوع".

ظلَّ الجوع لسنوات كابوسًا حقيقيًّا ينخر جسمي الضَّعيف في ملجأ التَّعاون الوطني، كما ينخر السُّوس الأسنان، فقد كانت كميَّة الغذاء لا تكفي لسدِّ الحاجيات؛ إذ كنت أحصل على خبزة صغيرة في اليوم الكامل: ربعها في وجبة الفطور، ونصفها في حصَّة الغذاء، والرَّبع الأخير في وجبة العشاء، كميَّة لا تزيدني إلَّا إحساسًا وشعورًا بألم السغب ووجعه بمجرَّد الانتهاء من تناول هذه الوجبات خاصَّة وأنَّ الجسم في مرحلة النمو والتشكُّل النِّهائي، إضافةً إلى ذلك كنت كثير الحركة والتحرُّك؛ لأنِّي كنت، وأنا صغير، مفتونًا بلعبة كرة القدم التي تحتاج إلى حركة دائمة ودائبة.

الجوع كان أضغاث أحزان لا زلت أتذكَّر جيدًا تأثيرها القوي، فهو لم يكن يُفارق معدتي، اتَّخذها مأوى له، ومسكنًا مريحًا في كلِّ الأوقات، لا يكاد يُفارقها، ظلَّ لصيقًا بها طيلة مكوثي في ملجأ التَّعاون الوطني؛ لذلك شكَّل الجوع مأساة حقيقيَّة ترسَّبت في لا وعيي، لم أتمكَّن من التخلُّص منها أبدًا، ظلَّت تعيش معي، في داخلي، بعبعًا يخيفني على الدَّوام، وحشًا يغرس مخالبه في أمعائي حتى حينما كبرت، وعرف الشَّبع طريقه إلى بطني، ظلَّ خيال الجوع ساكنًا في أعماقي، يُذكِّرني دومًا بالجوع الذي عشته، وعاش معي لسنين طويلة، استقرَّ في لا وعيي استقرارًا نهائيًّا، وبات جزءًا لا يتجزَّأ منه.

كانت أعاصير الجوع أكثر إيلامًا ومضاضةً في حياة الملجأ حتى إنَّها رمت بي في أحضان السَّرقة، وقذفت بي إلى عالمها الماكر، كان طعام المطعم هو باب ولوجي إلى هذا العالم، من هنا بدأت التَّجربة وتعلَّمت أصولها وأركانها، اللَّيل هو زمن السَّرقة المثالي؛ لأنَّه يحجب وجوهنا الحقيقية، ويُخفي تخوُّفاتنا من عيون الفضوليِّين التي لا يصيبها السهد، كنت أضطرُّ إلى اللُّجوء إلى سرقة طعام المطعم ليلًا، حينما يخلد الجميع للنَّوم، فالجوع نار تحرق أعشاب الفرح التي تنبت في دواخلنا، وتُسمِّم الفضيلة في الإنسان، وتُردي الإنسانية فيه. يقول فاسيلي غروسمان: "الجوع يضطهد الرُّوح، ويطرد الفرح والإيمان، ويُدمِّر التَّفكير، ويُولد الخضوع، والدَّناءة، والقسوة، واللَّا مبالاة".

كنت أعرف حقَّ المعرفة أنَّ السَّرقة مغامرة غير محمودة العواقب؛ لأنَّها تعني ببساطة الطَّرد من الملجأ، والعودة إلى حياة البادية البدائية، وما أشدَّها قسوة حيث سطوة الفقر والحرمان؟! كان إحساس غريب ينتابني كلَّما رغبت في ركوب المخاطر.. يُناديني صوت جارف كالفيضان: "لا تخف، فالجوع أقسى وأشدُّ بطشًا".. هناك دومًا صوت ونداء خبيث يستفزُّني من الدَّاخل.. يدفعني إلى الرَّذيلة دفعًا ويُحبِّبُها إلى قلبي.. أجد دومًا مُبرِّرًا نفسيًّا، أُغلِّف به فعلتي الخارجة عن القانون والشَّرائع الدِّينية، كنت أستشهد بذلك الفيلسوف الذي أقرَّ أنَّ من حقِّ

السَّارق أن يسرق ما يقتات به من جيوب الأغنياء، فما بالك إذا كانت المؤسَّسة عمومية أو شبه عمومية؟!

نعم، في دهاليز اللَّيل المظلمة، كنت وصديقي نستيقظ من النَّوم ونذهب خلسة إلى الاتِّجاه المقابل حيث المطعم، نركن قرب الباب رغبةً في التأكُّد ألَّا أحد يُراقبنا، فينحني لأركب على كتفيه، وأدخل إلى المطعم من النَّافذة الخلفية، كانت عملية سهلة وبسيطة، لكنَّ صعوبتها أنَّ هذا الفعل قد يُغيِّر مسار حياتي، ويقلب أحلام الدِّراسة إلى كابوس مُلازم مدى الحياة، هكذا هي حياة الصِّغر: توقٌ إلى المغامرة، وانتشاء بتلك اللَّحظة من الفعل الصِّبياني الخارق للعادة، ولحياة القطيع، كما كان يحلو لصديقي أن يُسمِّيها.

حياة الملجأ نموذج حيٌّ من حياة القطيع؛ لأنَّنا لا نمارس الأفعال إلَّا جماعة: فعل النَّوم، والأكل، والخروج والدُّخول.. وكأنَّها ترويض على حياة المجتمع النَّمطية من عادات وتقاليد ومناسبات، حياة القطيع موت جارف، هكذا كان صديقي يُردِّد؛ لأنَّك تعيش وتُفكِّر بمنطق الآخرين بعيدًا عن الأنا، تموت تلك الرُّوح الخلَّاقة والإبداعية؛ لأنَّك تحت وصاية الآخر الذي قد لا يقبل بمنطقك واختياراتك وأحاسيسك.

كانت حياة الملجأ حيوات القطيع بكلِّ أشكالها وألوانها.. حيوات تُفرض عليك فرضًا، ولا سبيل للتمرُّد والعصيان عليها، كان بوشتة – صديقي وشريكي الوحيد في تلك المرحلة العمرية من حياتي – مُغرمًا برواية "خرفان بانوج"، الرِّواية الوحيدة التي قرأها طيلة حياته الدِّراسية، والرِّواية التي تُلخِّص بامتياز مصير سياسة القطيع، ومسيرة حياتنا في الملجأ.

أتسلَّل إلى المطبخ، أفتح النَّافذة الدَّاخلية التي بقُربها يتخفَّى صديقي، أُعطيه ما يكفينا من الزَّاد، ونعود بسرعة فائقة إلى الغرفة مُتظاهرينِ بالنَّوم، وقبل أن يستيقظ الجميع في الصَّباح، أكون وصديقي أكلنا ما سرقناه لمحو آثار الجريمة المقترفة، تعدَّدت السَّرقات حتى أصبحتُ سارقًا محترفًا دون أن يعلم أحد بهذه الصِّفة، التي أصبحت تُلازمني كظلِّي.. أصبحت أُدْمِنُها.. ترتعد فرائصي.. وتجحظ عيناي، ويشتغل تفكيري بسرعة جنونية كلَّما همَمْتُ بالسَّرقة.. السَّرقة إدمان قاتل، مُخدِّر يبعد الإنسان عن جوهره الطيِّب، يُقحمه في عالم "حبِّ التملُّك" بإقصاء الآخرين، هي أيضًا نوعٌ مُتفرِّدٌ من الأنانية؛ لأنَّك تكسب عن طريق حرمان الآخرين من مكتسباتهم، من خواصهم التي تعبوا كثيرًا للحصول عليها.

من أطرف الأحداث التي أسترجعها كلَّما نزل موضوع "الانتشال" إلى الـذَّاكرة هـي أنَّـه: في يـوم مـن أيام مـارس، حـين كانـت تُقـام فيـه احتفـالات عيـد العـرش الصَّـاخبة طيلـة الشَّـهر، كانـت المدينـة تعـرف اكتظاظًا منقطع النَّظير؛ لأنَّ لها روافد عديدة ومُتعدِّدة، كان هذا يزيد من فرص ممارسة هواية السَّرقة بكلِّ نشاط واحترافية، كانت الضَّحايا من البوادي، والقرى القريبة يزداد عددهم من النِّساء والرِّجال، كنت في ذلك اليوم أتربَّص بأحد الضَّحايا من النِّساء، كنت فقط أنتظر اللَّحظة المناسبة للانقضاض عليها، لم أكن أعلم أنَّ أبي – رحمة الله عليه – يُراقبني في الجهة المقابلة للشَّارع الوحيد، سرقت "بزطامها"، وخرجت مهرولًا من الزِّحام، كنت أمشي بخُطى حثيثة دون أن ألتفت ورائي لكي لا أُثير الشُّبهات، فجأة أحسست بيد خشنة تلتفُّ حول رقبتي، وصوت جهوري معلوم، يأمرني بالتوقُّف، توقَّفت، نظرت خلفي، فإذا بأبي يأمرني بإخراج ما في جيبي، تجمَّدتْ أحاسيسي، وتغلَّفت بذعر يُصاحبه الفزع تقريبًا، لَغَوْتُ بكلمات غير مفهومة، حاولت أن أنكر لكنَّه كان على يقين أنَّ المسروق في جيبي، لم أجد بدًّا من الاستسلام لطلبه، عاد بي إلى نفس المكان الذي سرقت منه.. وجدنا تلك المرأة البدويَّة تبكي بدموع لا تتوقَّف، ربَّت أبي على كتفيها، وقال لها بصوت يحمل توسُّلًا واعتذارًا: "لقد وجدت بزطامك، تفضَّلي". أخذته بسرعة جنونيَّة،

وفتحته لتتأكَّد ممَّا فيه، بمجرَّد ما عدَّت نقودها، بدأتْ بالدُّعاء لأبي بالخير والُيمن والبركات، والصحَّة، والعافية، قالت، وهي تنظر إلى أبي: "لولاك لعدتُ خاوية الوفاض إلى قريتي، جزاك الله خيرًا، وجعل حسنتك في الميزان المقبول".

صمتٌ قبوريٌّ ساد بيني وبين أبي، وهو يقودني بقوَّة إلى الملجأ، كنت أتعذَّب داخليًّا، صمته له معنى واحد لا أحد يعرفه سواي، تمنَّيْت لو عاقبني بالضَّرب؛ بالشَّتم، بالسَّبِّ، أو بالخنق حتى.. لكن أن يقول شيئًا، أن يحكي، أن يُعبِّر.. وخصوصًا ألَّا يبوح بهذا السرِّ لأحد من عائلتي، كيف أُواجه العائلة؟ وماذا أقول لأمِّي كي أُبرِّر هذا الفعل الشَّنيع؟ وكيف أُواجه غمزات وهمسات إخواني وأخواتي؟ وماذا لو شاع الخبر بين النَّاس؟ أسئلة حارَّة، ومحرقة تلتهم ما تبقَّى من عزَّة النَّفس، وقوَّة التحمُّل، والجلد. أسئلة تافهة لكنَّها مُؤثِّرة، وتأثيرها يمسُّ أعماق الأعماق، يُطفئ ذاك الضَّوء الباهت الذي يُنير الأمل الهارب، بمجرَّد أن وصلنا إلى الملجأ، وضع أبي في جيبي قطعة نقدية من فئة خمسة دراهم، وأمرني بلهجة – خالية من أيِّ إحساس– بالدُّخول، كان هذا الحادث صعقة كهربائية صعقت علاقتي بأبي، وأطعمتها سمومًا فتَّاكة، وقاتلة، من يومها اعتبرت هذه العلاقة أطلالًا من الماضي، فنتْ ذلك الإحساس الجميل الذي يُرافق الطُّفولة بأن هناك شخصًا ما يهتمُّ لأمرك، يُعينك،

يدعمك، يساعدك، يُوقفك اذا سقطت، ويُصحِّح لك إذا أخطأتَ، تعقَّدت تلك العلاقة الرُّوحية التي طالما جمعتني بأبي، ولم يعد له ذاك المخزون من الحبِّ الدِّيني الدَّفين الذي كان دومًا حاضرًا في كياني، تحوَّل إلى ما يُشبه الحقد، كنت كلَّما رأيته تذكَّرت ببالغ الأسى والحسرة ذاك الحدث الأليم، والفعل الشَّنيع العظيم الذي جعل لفظة "سارق" نعتًا من نعوت شخصيَّتي، ووصفًا ذميمًا من أوصافي، أبي كان رجل دين بالفطرة، والسَّليقة، والتعوُّد؛ فالحرام عنده ما يضرُّ الآخر فعلًا، وتطبيقًا، والحلال ما ينفع الإنسان أينما وُجِد وتواجد، كان يفهم الدِّين انطلاقًا من هذه الرُّؤية فقط، أما ما تبقَّى من مناسك وعبادات فلا يعيرها أيَّ اهتمام، وفي أغلب الأحيان يبخس من قيمة هذه المناسك، ولا يجعلها عنصرًا للحكم على أفضليَّة الأشخاص.

ألقيت بجسدي المتعب فوق السَّرير، ولسعات الضَّمير تُعذِّبني، وعقلي لا يكاد يتوقَّف عن التَّفكير في "المصيبة " التي نزلت بي كالصَّاعقة، تمنَّيْت لو عادت عقارب السَّاعة إلى الوراء، تمنَّيْت لو كشفْتُ نوايا أبي قبل أن يكتشف فعلتي وحقيقتي، تمنَّيْت لو لزمت الفراش طيلة النَّهار، وتمنَّيْت أشياء ما خطرت على بَالِي، كيف سمحت لنفسي أن أهفو مثل هذه الهفوات؟ ومن يومها وضعت مسافة شاسعة بيني وبين السَّرقة، التزمت وجدانيًّا وعاطفيًّا بالابتعاد عن هذه الصِّفة

المذمومة نهائيًّا، فما أجمل ذلك المثل الألماني الذي يقول: إنَّ «أفضل وسادة في العالم هي ضمير هادئ!"

لم يهدأ ضميري إلَّا حينما ابتعدت عن آفة السَّرقة، واقتنعت اقتناعًا نهائيًّا أنَّها آفة خسيسة من الأحسن تجنُّبها.

رسبت في داخلي أحاسيس تُشبه التَّأنيب الدَّاخلي، شعرت بالمهانة والألم، والإحباط، واليأس، وتساءلت بعمق وعفوية: أيستطيع طفل في عمري أن يُواجه نوازل الحياة دون أن يُخطئ؟ دون أن تسحقه رغبات الآخرين، أو أن يسحق من هم أضعف منه؟ وهل يستطيع أن يُفكِّر بشكل سليم وهو يفتقر إلى أدنى مُقوِّمات البقاء على قيد الحياة؟ ما العمل إذا أراد أن يُلبِّي حاجياته الأساسيَّة؟ كيف نُلقي باللَّوم على قاصر وبينه وبين المجتمع، والمحيط مسافة شاسعة؟! مَن ينصت إلى مثل هؤلاء إنصاتًا حقيقيًّا؟! مَن يتقرَّب إليهم ذهنيًّا وروحيًّا؟! مَن يُوجِّه سلوكهم توجيهًا سليمًا؟! مَن يأخذ بيدهم؟! وابل من الأسئلة تتساقط في ذهني وكأنَّها تبرير للأخطاء، والهفوات التي مسَّت سيرتي، وسلوكي في الماضي المدفون في ذاكرة الذَّاكرة.

فاتحة الحب

نظرة وحيدة كانت أكثر من كافية؛ لتخترق عمق قلبه، وتحفر جيرانًا في صخرته العتيدة، كانت سلمى قد جاءت لزيارة أمِّها في ذلك اليوم الرَّبيعي المشمس، والزَّاهي من أيام الآحاد في أواخر شهر مارس، لم يسلم كلُّ مَن كان داخل الملجأ من سهم جمال سلمى؛ فقد كانت آية من البهاء، والجمال الطَّبيعي، الذي يهدُّ عرش الحياء، والخجل، والوقار، كانت السُّنون قد تدفَّقت، ومرَّت، وكنت يومها في سنتي الأخيرة في الملجأ؛ لأنَّها السَّنة الأخيرة من التَّعليم الثَّانوي، فقد كان لزامًا علينا أن يُغادر كلُّ تلميذ أنهى دراسته الثَّانوية فضاء التَّعاون الوطني.

لا أذكر، ولا أدري كيف اقتادتني رجلاي لأجد نفسي، أسأل سلمى، وأنا منبسط الأسارير، عن سنِّها ومستواها الدِّراسي، كانت نار حقيقيَّة تشتعل بداخلي، وهي تلملم شفتاها للإجابة، وتنظر إليَّ بتلك العينين الخضراوين القريبين إلى الأخضر الفاتح، وترنو إليَّ في دلال لا

يُقاوَم.. كانت تعرفني من خلال حديث أمِّها عنِّي قالت، وهي تنظر إلى عيناي مباشرة، لترى ما تبقَّى من منسوب المقاومة لديَّ:

– كانت أمي تُحدِّثني عنك باستمرار منذ وطئت رجلاك هذا الملجأ.

– حقًّا! وماذا قالت عنِّي؟

استفسرت بغية الاستمرار في الحوار..

– كلُّ شيء تقريبًا.

أجابت، والابتسامة مرسومة على وجهها المشرق الذي يشعُّ نورًا وضياءً وكأنَّها لوحة الموناليزا الشَّهيرة، أو هكذا بدا لي تقريبًا في تلك المرحلة العمرية من حياتي، غالبًا غيث البدايات في العشق إعجاب صادق، يبقى في القلب والذَّاكرة، عشقي أيضًا كان قطرة، ثم صار غيثًا بلَّلَ أرض عشقي وهيامي.. سعير البدايات، آهٍ من وجع البدايات.. لا أُريد استرجاع ذكريَّاتها؛ لأنَّها تُؤْلمني، وتخلق داخلي جروحًا لا تلتئم..

كان شيء ما بداخلي يتحرَّك.. يفور.. يغلي.. هو أشبه بطوفان داخلي، بدأ يهزُّ دروع مقاومة الأنا الأعلى، عاصفة تحرق ما تبقَّى لديَّ

من موروث الخجل والحياء.. قلت لها باستسلام تام، وكأنَّني جندي خسر الحرب، واستسلم لمرارة الهزيمة:

– إنَّك أجمل ما رأيت في حياتي.

ابتسمت.. ضحكت بصوت عالٍ، وهرولت نحو المطبخ، لم يكن بإمكاني الركوض خلفها نحو المنطقة المحرَّمة، فلو كان ممكنًا لركضت..

كان هذا لقائي الأول معها، ومنذ تلك اللَّحظة لم تُفارق صورتها ذهني.. ظلَّ قوامها المعتدل، وخصرها الدَّقيق، وكأنَّه مرسوم بريشة فنَّان، وشمًا في قلبي لا يُمْحى، يُغريني، ويُغويني بشكل باهر، كانت دومًا حاضرة في لغة جسدي، وكياني، تُحرِّضه على نعمة هي كالحلم..كانت ابتسامتها تزيد من بريق جمالها الجذَّاب، وضحكتها الفاتنة التي ترسم غيرانًا على خدَّيْها، تجعلني أفقد توازني وتركيزي، حتِّى حزنها الذي يجعلها صامتة لا ترفع عينيها، يسعدني ويدخلني في فرح لا يُوصَف، لا ردَّة فعلها تجاه الأشياء التي لا تعجبها، تُعجبني أيَّما إعجاب!

كنت أسأل عنها أمَّها كلَّ يوم فقد تواعدنا على الزَّواج بعد نعيم الأُلفة التي تجذَّرت في دمائنا، حتى حينما رحلت لمتابعة دراستي الجامعيَّة بعيدًا، لم أتمكَّن من نسيانها، سكنت في قلبي ولم تهجره أبدًا، تذكَّرت

قولة علي بن أبي طالب ڤ:"إنَّ الله يقذف الحبَّ في قلوبنا، فلا تسأل محبًّا لماذا أحببت؟" استهويت هذا القذف، وألفتُ هذا الحبَّ الذي تجمَّد حول قلبي، وبات داخل ذاتي كجزء لا يتجزَّأ من أعضائي، حبُّها استوطنني بشكل كامل، واستعمر كلَّ كياني، لذلك كان وعدي، وقراري صادقًا لها بالزَّواج.

وشتَّان بين الوعد وتحقيقه، أو بين أخذ القرار وتنفيده، فقد رحلت تلك التي اعتبرتها زوجتي منذ النَّظرة الأولى إلى فرنسا مع زوجها الحقيقي، ذاك المهاجر الذي انتزعها منِّي بورقة صغيرة تُسمَّى "عقد النِّكاح"، وسافرت معه إلى بلاد المهجر، المهاجرون تعلَّموا في بلاد الغربة من المستعمر الغاشم كيف ينتزعون أغلى الأشياء، وأجملها من أيادي الضُّعفاء، لولا سرقاتهم لخيراتنا ونعمنا ما كانوا بنَوْا أمجاد حضارتهم التي قامت على النَّهب والاستغلال، وها هم مُثِّلوهم في بلادنا، ينتشلون عشقنا، وحبنا، والأشياء الرَّائعة التي نملكها، لم يكن كاذبًا ذاك الصَّحفي البلجيكي الذي صرَّح أنَّ "حضارة الغرب هي حضارة لصوص". هكذا كنت أُهوِّن من هول ما وقع لي.

بكيت.. وبكيت.. ثم بكيت طويلًا حين نزل الخبر عليَّ كالصَّاعقة في ذلك اليوم الخريفي القاسي الذي ظلَّ محفورًا في كلِّ جزء

من مساحة قلبي، أُصبت بنوع من الإحباط والاكتئاب، وفقدتُ لذَّة العيش، وفكَّرتُ مرارًا في الانتحار؛ لأَّن سلمى شكَّلت العمود الفقري في بناء مستقبل حياتي، حين عدتُ من الجامعة لم أُفكِّر إلَّا في شيء واحد، شيء يُخفِّف من لواعجي، وآلامي، من بكائي، ونواحي، من ذلك الأثر الشَّنيع الذي خلَّفه الفقدان المفاجئ لسلمى، سلمى التي كانت مركزَ ومحورَ اهتمامي، وشغلي الشَّاغل الذي لا غنى عنه..

فكَّرت في زيارة مباغتة لأمِّها وللمرأة التي طالما اعتبرتها أمِّي البيولوجية، كانت الزِّيارة في ذلك المساء الشتوي –وكأنَّ الطَّبيعة تُشاركني الأحزان– أليمة وحزينة، يشوبها نوع من الإحباط الحاد الذي ظهر على ملامحي ونظرات عيوني، وعلى طريقة كلامي. كانت عودتي إلى الملجأ بمثابة زيارة ضريح وليٍّ يُوزِّع البركات والنِّعم كما كان سائدًا في الاعتقاد، هذا المكان ظلَّ حتى، وأنا بعيدًا عنه، رحم ولادتي، ومكان منشئي، وتكويني الجسدي والذِّهني.

ألقيت عليها التحيَّة، وباغتتها بسؤال ربَّما كانت تنتظره منِّي:

ما الذي جعلها تفعل ما فعلت؟!

– أنا بـدوري لا أدري كيـف اقتنعـت بهـذه السُّـرعة والسُّـهولة. ردَّت وهي تنظر إليَّ نظرات طويلة، وغير مفهومة.

– ألم يكن بالإمكان منعها؟!

– مـا بيـدي حيلـة، فقـد كـان قرارهـا أقـوى ولا رجعـة فيـه.. حاولت.. وحاولت لكنَّني لم أتمكَّن من تغيير موقفها.

كـان هـذا الحـوار القصـير، والمفعـم بالـدلالات، كـل مـا دار بيـني وبينهـا. ودَّعتها بعد ذلك بعيون دامعة ونظرات تختزل الكآبة، والرَّغبة الجامحـة في الانتقـام، ودَّعتهـا واعـدًا إيَّاهـا بـزيارات أخـرى في القريـب العاجل، لا أدري ما الذي كان يشدُّني إلى هذه المرأة شدًّا، أهو الماضي المشترك الذي جمعنا سويًّا؟ أم هو ردُّ فعل طبيعيٍّ على ما صدر منها في حقِّي حين كنت في الملجأ؟ أَولأنِّيّ أجد فيها شبهًا كبيرًا بينها وبين أمِّي الحقيقية؟

بعـد عـام أو يزيـد قليلًا، عـبرت جبـال المعـاناة بسـلام، وتناسـيت بنوع من الأسى، والحسرة، والحزن الحبيب الأول الذي ظلَّ سرًّا مكتومًا طيلـة هـذه السَّـنوات الـتي عشـتها، وملفًّـا محكـم الإغـلاق، ولـو أنِّيّ في مرَّات متباعدة، أحسَّ بوعكة الماضي، وثقله في جوارحي وجوانحي حقًّا،

فالنِّسيان لا يبتلع كافَّة الأوجاع وآهات القلوب، النِّسيان ممحاة للأحداث والوقائع المركونة في المنطقة الخلفيَّة للذَّاكرة، لكنَّه ليس محوًا نهائيًّا، يظهر بين الفينة والأخرى استجابة لسلطة مثير ما، النِّسيان نعمة ظلالها وارفة على أرواحنا وأجسادنا، ظلال تمنع أجسادنا من الاحتراق بلهيب الهموم السَّاكنة في أعماقنا، ومن الاكتواء بسعير أسرارنا المحجوبة عن الانتشار، نعمة لا تُوازيها نعمة أخرى راحةً واستراحةً من أتعاب الحياة وأشغالها، ومجرياتها المتشعِّبة والمتسارعة.

النِّسيان أيضًا تجديد وتجدُّد لدماء الحياة ومائها كي يبقى دائم الجريان في شريانها، النِّسيان أفول شمس من أجل إشراقة جديدة، هو أيضًا انسحاب ظلام ليل من أجل بزوغ صباح مختلف.

النِّسيان مهمٌّ، والأهم هو التَّناسي الذي يحدث بفعل قوَّة واعية مُتعمَّدة، يحدث بفعل اختيار إرادي ورغبة نابعة من الذَّات من أجل التَّجاوز، والقفز على الأحداث التي تُعكِّر صفو حياتنا، مَن يملك قوة التَّناسي حتمًا يملك قوة التحكُّم في الأحاسيس والشُّعور، يملك زمام الأمور الظَّاهرية والباطنية على حدٍّ سواء.

في حياتي ما ملكت يومًا نعمة التَّناسي، ولكنِّي رُزقت بذاكرة فضاءها يضيق كثيرًا للأحداث والأشخاص، ذاكرة شبه مثقوبة لا تُبقي

إلَّا القليل، تُبقي مَن استعصى على ممحاة الذاكرة أن تمارس فعل المسح عليه، فكم من أحداث طالها النِّسيان؟ وكم من أشخاص لم تعد صورتهم موجودة أصلًا؟ وكم من فضاءات غاب تواجدها من بيت الذاكرة.. وكم.. وكم.. وكم؟!

قيل: "ما الحبُّ إلَّا للحبيب الأوَّل"، لكن للقلب أيضًا لحظات الانتعاش التي تخرجه من قاعة الاحتضار، والموت البطيء، اللَّحظات التي تلي النَّجاة من كابوس الغرق، فينتعش الأمل من جديد، وتعود إليه الحياة تدريجيًّا عبر خفقان جديد ناسيًا أو متناسيًا انكساراته المريرة، وسقطاته المدوية وفشله الذَّريع.

الفقيه

في أحيان كثيرة، كنت أحاول أن أعيش كما يلزم الأمر داخل ملجأ التَّعاون الوطني، إنسانًا مسالمًا، خانعًا، خاضعًا لقوانين المؤسَّسة: لا احتجاجات، ولا إضرابات، ولا اعتراض، ولا تأفُّف.. لكن كان هناك شيء يقلقني، ويُثير حفيظتي، ويجعلني أخرج عن الإطار المرسوم سابقًا داخل المؤسَّسة، وأتصرَّف بشكل مخالف لطبيعتي المهادنة، أتصرَّف كثور هائج لا شيء يمنعه من الهيجان، ذاك الشَّيء هو فقيه الملجأ، فقد كان لزامًا علينا أن نُساقَ ونَنْساق كخرفان بانودج إلى المسجد كلَّما نُودِي للصَّلاة، لم يكن هناك أدنى تسامح على الذين يتخلَّفون، عقابهم غالبًا ما يكون عسيرًا، ذات يوم تخلَّفت عن الصَّلاة، وحدث ما لم يكن في الحسبان، اقْتِيد بي إلى الإمام ليستجوبني، وكأنِّي ارتكبت جريمة هزَّت أركان الدَّولة، وخلقت بلبلة داخل المجتمع، استجوبني، باعتباره المسؤول عن السُّلوك الأخلاقي لدى القاطنين، وأيضًا ليضمن الولاء، والتَّرسيم

داخل المؤسَّسة، قال وهو ينظر إليَّ نظرة فيها الكثير من الاحتقار والازدراء:

لماذا لم تصل مع الجماعة طيلة هذا اليوم؟

– كنت مريضًا، أجبت بسرعة زائدة.

وما نوع هذا المرض الذي منعك من الصَّلاة؟

– آلآم حادَّة على مستوى البطن، وإعياء كلوي.

آلام البطن والإعياء لا يمنع من الركوع والسُّجود أيُّها الكافر، أجابني بوجه عبوس مُتجِّهم يخلو من أيِّ أثر للرَّأفة، والرِّفق.

كلمة "كافر" أصابتني بالذُّهول، والخيبة، وأحسست بالخزي والذلِّ والعار، وخلقت داخلي قشعريرة اشمأزَّت لها نفسي، غشيَ القلق بصري، وبصيرتي، وأجبت بانفعال شديد ودون تردُّد:

– الكافر هو أنت، وأبوك، والتي ولدتك، وكل عائلتك..

استشاط غضبًا، واحمرَّ وجهه كليًّا، وودَّ لكْمي على الوجه، لكنِّي منعته، وحذَّرته بشدَّة من إعادة المحاولة مرَّة أخرى، تفاجأ لاعتقاده

جازمًا أنِّي لا أستطيع أن أُبْدي ردَّة فعل مثل هذه، تمثَّل أنِّي سأكون حملًا وديعًا، وسأحترم هالته الدِّينية، لكن هيهات.. هيهات!

نظر يمينًا، ويسارًا، واتَّجه مُسرعًا نحو الباب، اتَّجه نحو "بَّجيلالي "باعتباره المكَّلف بفضِّ كلِّ الخلافات والنِّقاشات التي تدور في الملجأ، روى له بطريقته الخاصَّة ما دار بيني وبينه شاكيًا باكيًا أن يأخذ له الحقَّ.

صورة الفقيه كانت عند الغالبية العظمى مصدر صدق، وثقة وأمان، فما يقوله الفقيه ويقرُّه هو الصَّحيح المطلق، ولا نقاش بعده حتى ولو كان على خطأ، العقل يُغَيَّبُ ويَغِيب أمام السُّلطة الدِّينية، موروث ثقافي ترسَّخ في الأذهان عبر سلسلة زمنية طويلة رغم أنَّ الدِّين دعا إلى استعمال العقل، ورفع من شأنه، وأولاه أهميَّة خاصَّة ومميَّزة.

لم يكن أمام بَّجيلالي إلَّا أن يُصدِّق الفقيه تصديقًا أعمى، ويُكذِّب كلَّ ما ورد على لساني، فأنا المذنب، حتى لو كنت بريئًا.

اتَّفقا على أنَّني أتَمَارَض، وأنَّ ادِّعائي للمرض لم يكن إلَّا هروبًا من أداء واجب الصَّلاة، وأنَّ العقوبة ستُحدَّدُ لاحقًا، عند الافتراق لم أكن أفكر إلَّا في نوع العقوبة التي ستنزل على رأسي، هل ستمسُّ البطن كما

في المرة السَّابقة؟ أم سيكون مصيري الطَّرد نهائيًّا من هذا القفص الذي لا بدَّ منه لتعليمي وتعلُّمي؟ أم للأمر حل آخر لا أعرفه.

من يومها نشأت علاقة عدائية بيني وبين الصَّلاة في الملجأ؛ لأنَّها أرضعتني جزءًا من الآلام، والمعانات، وباتتْ عذابًا يوميًّا لا بدَّ من ممارسته، بل حينما كنت أسمع الأذان، كنت أتألم داخليًّا؛ لأنَّ تواجدي في المسجد إلزامي وضروري، كرهت الصَّلاة كعادة يوميَّة، مُجبريَن للقيام بها وراء ضغط ذاك الفقيه المتعجرف الذي لا يعرف من الدِّين إلَّا: إنَّ الصَّلاة عماد الدِّين، والركن الأساسي في الإسلام الذي يُفرِّق بين المؤمن والكافر، أغلب القاطنين –إن لم أقل كلهم – يؤدُّون الصَّلاة مكرهين تحت إلحاح الفقيه، كانت الصلاة تعوُّدًا إلزاميًّا خاليًا من كلِّ أثر للعبادة والتقرُّب إلى الله.

بعد يومين من تلك الحادثة استدعاني بَّجيلالي ليُخيِّرني بين أمرين أحلاهما مرٌّ؛ إمَّا الاعتذار وتَقْبيل يد الفقيه، وإما أن تُرفَع القضية إلى المدير ليُحدِّد بنفسه نوع العقوبة المفروضة، أحسست أنَّ الأمر في غاية الصُّعوبة؛ فلا أنا أقبل هذا الاعتذار، ولا أنا قادر على مواجهة عقوبة المدير التي قد تكون أقسى وأشد مضاضة، وبما أنَّه عليَّ أن أختار، فقد ابتلعت الإهانة على مضضٍ، واخترت الاعتذار، أوجعني، وآلمني كثيرًا

أن تُمرَّغ كرامتي في التُّراب، وأن أُقَبِّل مُكرهًا يد الفقيه؛ لأنَّ ذلك يعني أنِّي لست بريئًا كما أدَّعي، بل أنا المخطئ في حقِّ الفقيه، في كثير من الأحيان يتحوَّل الظَّالم إلى بريء، والبريء إلى ظالم، حينما يختلُّ التَّوازن بين المدَّعِي والمدَّعَى عليه، فمن أكون أنا؟! بَدَوِيٌّ قادم من بادية مجهولة، لا يعرف كُوعَه من بُوعِه، وليست له أيُّ دراية أو كفاية، وليست له سلطة أو قدرة ما.

"طز" عليك يا أحمد، وعلى الذين جاؤوا بك إلى هذا العالم، لست إلَّا واحدًا من الحشرات الضَّارة، هكذا كنت أُخاطب نفسي سرًّا وعلانية، كم تمنَّيْت في تلك اللَّحظات أن أملك الرَّصاص لأُرْدي تلك الحثالة من البشر! وكم تمنَّيْت لو ملكت سلطة الموت لأغتال مَن أشاء دون عناء! لكن "ما كلُّ ما يتمنَّى المرء يدركه".

قال لي، وأنا أركع، لأُقبِّل يديه بينما هو جالس يقرأ القرآن في صمت:

– وأخيرًا جئت كالكلب لِتطْلب المسامحة!

لم يكن أمامي خيار آخر غير الصَّمت، ولو أنَّ في داخلي ما يشبه البركان يُغْلي! تعمَّدت ألَّا أنظر إلى وجهه المكفهر الذي يحمل ندوبًا

وجروحًا قديمة، وألَّا أرَّد على استفزازاته خوفًا من عواقب أخرى، فالصَّمت في مثل هذه المواقف حكمة وقوَّة داخليَّة، سجنت في صمتي مجبرًا حتى لغَا بكلمات غامضة ولم أسمع منه شيئًا، وهو يرشقني بنظرات كلها كراهية وغضب، أشدُّها قوله لي:

– ابتعد عن وجهي أيُّها الشَّيطان اللَّعين.

هرولت بخطى حثيثة نحو الباب وكلمة "شيطان" كما "الكافر" تدور في ذهني، لم أعد كافرًا فقط، وإنَّما ممثل الشَّيطان في الملجأ، أسلوب التَّحبيب والتَّرغيب لم يكن باديًا في حديثه، ولا في سلوكه، ولا أظنُّه عالمًا ومطلعًا على هذا الأسلوب أصلًا. كلامه جاف مثل الصَّحراء وصلب مثل الحجر، أما نظراته فتجريح كلي وإقصاء وتهميش.

تساءلت بغضب: مَن منحه صفة فقيه التي يتبجَّح بها وكأنَّها عملة نادرة؟! ومن منحه الحقَّ أن يُمارس علينا نزوات الظُّلم والطُّغيان باسم الدِّين؟! ومن أولاه مهمَّة الدِّفاع عن الدِّين أصلًا؟! أحقًّا من حفظ القرآن الكريم علينا أن نُطلق عليه لقب فقيه؟! أم الفقيه هو من تدبَّر الآيات القرآنية في أفعاله وأقواله؟ ما نفع الدِّين إذا لم يكن إجرائيًّا وعمليًّا يخدم الإنسان في كلِّ حالاته وأحواله؟ ألا يحقُّ لنا أن نسائل الفقيه عن عدد الذين أحبُّوا الدِّين بسببه أم كرهوه؟! غبار الأسئلة

يتطاير في ذهني وما وجدت جوابًا شافيًا كافيًا، ربما لأنَّ الثَّقافة الجاهزة هيَّأت أجوبة جاهزة منذ القدم.. كان يمارس السِّياسة وليس الدِّين إلَّا مطيَّة.

لم ينته وابل الأسئلة إلَّا حين سمعت صوت صديق لي وهو يصرخ "أحمد، أحمد.. حان وقت العشاء" مُسرعًا، قمت من مكاني، واتَّجهت نحو قاعة الأكل ضاربًا عرض الحائط كلَّ ما حدث.

وجعي مع الفقيه كان يتجدَّد خمس مرَّات في اليوم تقريبًا، فكلما حان وقت الصَّلاة، كان لا بدَّ من رؤيته في مسجد الملجأ؛ لأنَّه الإمام الوحيد الذي يؤمُّ بنا، نادرًا ما يلتفت إلى الجهة التي أتواجد فيها، أمَّا أنا فلا أدخل المسجد إلَّا مطأطئ الرَّأس؛ كي أتحاشى نظراته الحاقدة، لم أكن أرفعه إلَّا حينما أسمعه يتلو القرآن، وأجلس قرب الباب لأكون أول المغادرين، أُصلِّي دون خشوع، ولا أُفكِّر إلَّا متى سينتهي وقت الصَّلاة، الصَّلاة في الملجأ عبادة إجباريَّة مفروضة علينا جميعًا.. سلطة الفقيه تنوَّعت وأصبحت سلطات منها الدِّينية والتَّربوية والأخلاقيَّة.. أصبحت كلمته لا كلمة تعلو فوقها إلَّا كلمة رئيس المؤسَّسة. ساورني إحساس غير ما مرَّة أنَّ الفقيه يستطيع أن يستتبت، بكثرة وصلابة تدخلاته، الأمن والأمان داخل المؤسَّسة بشكل مستمر، ودائم، فهالته

الدِّينية المقدَّسة، وشخصيَّته المهابة، وهَيبتاهُ امتيازًا كسَّر احتكار هيمنة بَّجيلالي رغم حداثة التحاقه بالمؤسَّسة.

مع توالي الأيام والشُّهور والسِّنين لم يعد صوت يصدح في سماء الملجأ إلَّا صوت الفقيه، ولم تعد هناك من كلمة إلَّا كلمته، فقد أصبح الآمر النَّاهي داخل المؤسَّسة، الكلُّ كان يتساءل ببراءة أحيانًا وبِخُبثٍ أحيانًا أخرى: كيف استطاع هذا الفقيه أن يقلب موازين القوى لصالحه؟! هل هو الذَّكاء الحاد الذي يلمع في عينيه؟ أم شخصيَّته القويَّة التي تفرض الاحترام؟ أم أنَّ هناك طلاسم سحرية وراء سطوته كما كان يُشاع داخل المؤسَّسة؟! كلُّ التَّفاسير تُؤدِّي إلى مصبٍّ واحد: أنَّ للفقيه شأنًا كبيرًا داخل الملجأ، لا يهمُّ كيف ولماذا ومَن أوصله إلى ذلك الشَّأن.. لم يكن الوحيد الذي صعد بشكل سريع في الحياة المهنيَّة مستغلًّا هالة الدِّين.. العديد من النَّاس انتهجوا نفس المسار قبله، وسيأتي حتمًا آخرون بعده.

قطيعة تواصليَّة كليَّة ميَّزت علاقتي بهذا الفقيه المتعجرف، والمنبوذ سريًّا في أوساط القاطنين، قطيعة ارتحتُ إليها نفسيًّا رغم أنِّي كنت أدرك أنَّه يترصَّد أخطائي رغبةً في الانتقام، ورغبةً في إعطاء درس بليغ لكلِّ راغب في تحدِّي سلطته، وهيمنته المطلقة على دواليب المؤسَّسة، كنت

أتصرَّف بحذر شديد، وأتجنَّب كلَّ ما يمكن أن يجعله حكمًا باعتباره خصمًا منذ البداية.

شكَّل موت مُدير الملجأ لحظة تاريخية، ومنعطفًا جديدًا سيُغيِّر مسار الحياة بكلِّ أشكالها، وألوانها داخل المؤسَّسة، أُولى هذه الأشياء مَن يرث منصبه الذي يتهافت عليه الكثير من المتهافتين؟ الفقيه الذي أصبح ملمًّا بكلِّ صغيرة وكبيرة، أم نائبه الرجل الطيِّع الذي لا يُعصي أوامره، أم المقتصد الذي يعلم الخبايا، والكواليس التي يجهلها الجميع، الثَّلاثة لهم دوافع ومُبرِّرات تجعلهم يؤمنون بحظوظهم، ويعملون على كسب ثقة الجميع، والسَّعي الحثيث وراء هذا الحلم الذي قد يتحقَّق خاصَّة أنَّ مثل هذه الوظائف كانت تمنح بالمحسوبيَّة والزُّبونيَّة في ذلك الزَّمن.

من داخل الملجأ كان القاطنون يتهامسون، يتشاورون، يتناقشون، لكنَّهم يجمعون على أنَّ الثَّلاثة من طينة واحدة، يتمنَّوْن من الأعماق ألَّا يصل أيُّ واحد منهم إلى هذا المنصب، كان الانتظار الطَّويل قاسيًا ومُشوِّقًا إلى حدٍّ كبير، إلى أن جاء اليوم المعلوم، اليوم الذي ولج الملجأ شاب في مقتبل العمر، مربوع القد، أسود الشَّعر، لا يخلو من جمال ظاهري أنيق المظهر، باسم الثَّغر، وضَّاح الوجه، همس لمساعد المدير في

أذنه، ودخل إلى مكتب المدير السَّابق، إنَّه المدير الجديد الذي طلب اجتماعًا عاجلًا مع جميع الموظَّفين، الكلُّ كان يسأل ويتساءل: مَن يكون هذا الذي سيُدير مؤسسة التَّعاون الوطني؟ وما هو مشروعه؟ وكيف سيتعامل مع القاطنين؟! على نار من التَّشويق جاءت الأجوبة مدهشة ومفاجئة إلى حدٍّ كبير، لم يكن ذاك الشابُّ إلاَّ الصَّديق الحميم للمدير السَّابق الذي عُيِّن من السُّلطات المختصَّة مديرًا جديدًا لهذه المؤسَّسة المغضوب عليها مجتمعيًّا، بل هناك من يدَّعي أنَّه من أقرباء عائلته؛ لذلك كانت توصيات مُلحَّة لخلافته من طرف المرحوم.

قال أحدهم وهو مستلقٍ فوق الفراش:

– ذاك الطَّير من نفس السِّرب!

– قد يُخالف الطَّير طريق سربه أحيانًا. أجابه الآخر من مكان بعيد داخل الغرفة.

– لكن هذا الطَّير سيظلُّ دائمًا يحمل بعض خصائصها ومميزاتها، ناهيك عن مجالها.

– شاركهم آخر قائلًا، وكأنَّه يفصل بينهم: مَن عاشر قومًا أربعين يومًا صار منهم.

الجميع كان يتشوَّق إلى التَّغيير، التَّغيير في كميَّة الأكل، في المعاملة، في النَّظافة، في الاهتمام والعناية، في العاملين داخل المؤسَّسة، يتتوَّق الجميع إلى حياة أخرى مختلفة، أفضل وأحسن؛ لذلك رأى الكل أنَّ من أروع الأشياء الجديدة التي قام بها المدير الجديد تلك الجولة التَّحسيسية التَّفقُّديَّة لكلِّ غرف المؤسَّسة للوقوف عن مشاكلها الحقيقية، سأل عن حاجياتهم، عن انشغالاتهم، عمَّا يعترض طريق تعلُّمهم..كان لا يُعطي وعودًا، ولا يعدُ بحلول، يكتفِي بجسِّ النَّبض، واكتشاف واقع لا يعرفه مُطلقًا، ربَّما يصطدم به لأول مرَّة في حياته، شاع بين الجميع أنَّ هذا المدير الجديد كسب المنصب بالتَّوصيات والوراثة.

الوراثة سرطان الأمراض التي قد تُصيب المجتمعات، فتغتال الحيَّة من الخلايا التي تُساهم في النُّموِّ والتَّطوُّر والبقاء على قيد الحياة، وهو الامتياز الذي يناله من لا يستحقُّه أصلًا؛ لأنَّه يجده جاهزًا في انتظاره، مُهيَّئًا له دون مشورته وعلمه، وفي الغالب بعيدًا كلَّ البعد عن ميولاته ودوافعه الدَّاخلية، وهي مَن تمنح المناصب على طبق من ذهب دون جهد جهيد؛ فيكون المردود رديئًا وضعيفًا، لا شيء أعدل من الكفاح من أجل النَّجاح والفلاح للحصول على المراد والمبتغى، الكفاح هو سنَّة

الحياة والقانون الذي يجب أن يسري داخل أيِّ مجتمع من أجل نيل المتمنيات والغايات، الوراثة ريع مدمِّر فتَّاك وسامٌ.

ورث المدير الجديد المنصب وهو لا يفقه شيئًا في التَّسيير، ولا في التَّدبير، ولا في شؤون المؤسَّسة..كان لا يزال غضًّا طريًّا في أمسِّ الحاجة إلى معرفة الحياة بعيدًا عن حضن الغنى والتَّرف البادي على ملامح وجهه وشكله الخارجي، بعيدًا عن الاتِّكالية والمساعدة والدَّعم بعيدًا عن بحبوحة العيش التي لازمت حياته منذ الولادة.

الغالبية العظمى الموجودة في المؤسَّسة يتقرَّبون إليه بشكل أو بآخر، يحاولون تقديم المساعدة طمعًا في معاملة خاصَّة مستقبلًا، المساعد لا يبتعد عنه إلَّا لمامًا. أصبح هو الشَّبح الذي يُسيِّر المؤسَّسة من وراء الكواليس، بل في أغلب المرَّات هو الذي يجيب إجابة نهائيَّة عن الأسئلة المطروحة التي تستعصي على الجميع، أما الفقيه فكان ينتظر لحظته المناسبة دون تسرُّع، يُبدي رأيه، يساعد إن أمكن، ولا يتدخَّل إلَّا حينما يتطلَّب الأمر ذلك، أما المقتصد فكان الاستثناء الوحيد الذي خرج عن القاعدة، لا يُفارق مكتبه إلَّا نادرًا، ولا يُناقش أحدًا، ولا يُقدِّم أدنى دعم إلَّا في حدود ما يمليه الواجب المهني.

في البداية، كانت الحياة تسير في الملجأ كما كانت دومًا دون أدنى تغيير، وكأنَّ المدير القديم لا زال هو من يُسيِّر، وهو مَن يُعطي التَّعليمات والأوامر، وأنَّ موته لم يكن موتًا نهائيًّا إلَّا جسديًّا، أمَّا أفكاره، وآراؤه فظلَّت حيَّة تَحيى في تفكير كلِّ الموظَّفين والعاملين داخل المؤسَّسة، ووجود صديقه على رأس هذه المؤسَّسة بدا منحة للاستمراريَّة في كلِّ شيء، وحياة ثانية بعد وفاته في الشَّكل والعمق، لكنَّه وضعٌ لن يدوم طويلًا، فبعد ما يناهز الشَّهرينِ من تعيين المدير الجديد بدأت معالم التَّغيير تدِبُّ في جسد المؤسَّسة، أولاها مسَّت بطون القاطنين؛ إذ تضاعفت الكميَّة حتى لامست الشَّبع النهائي لأيِّ قاطن بدون استثناء، حدثٌ استرعى انتباه الجميع، وولَّد فرحًا عارمًا وارتياحًا كبيرًا في نفوس الجميع.

إنَّ أكثر ما يُبهج الجائع، ويسعده هو تلبية حاجياته البطنيَّة أولًا وأخيرًا، يصبح مثل ذاك الفيلسوف اليوناني المسمَّى "أبيقور"، الذي كان يرى أنَّ أقصى سعادة الإنسان هي ما يُشبع حاجاته البطنيَّة، وغايته الكبرى في الحياة غالبًا ما ترتبط بما يملأ تلك الحاجيات بشكل دائم ومستمر، وثاني هذه التَّغييرات هي النَّظافة التي كانت معاناة حقيقية داخل الملجأ؛ إذ أصبحت عاملة جديدة مُكلفة بهذه المهمَّة، ومزوَّدة بكلِّ أنواع الوسائل والعطور التي باتت روائحها تفوح في كلِّ أرجاء

المؤسَّسة، ما أروع التَّغيير إذا كان من الأسوء إلى الأحسن! وما أعظم الإنسان إذا كان يحمل قيمًا إنسانية تخدم الإنسان، وقيمًا وطنيَّة تحمل هَمَّ الوطن!

إحساس عميق ووُدي بات يجمعني بهذا الملجأ الذي احتضن انكساراتي، وكبواتي الأولى في الحياة، وأذاقني من أصناف وأنواع الهموم ما يصنف خارج دائرة النِّسيان، بات واحدًا من الأمكنة التي أجد فيها ارتياحًا نفسيًّا وإقبالًا داخليًّا عميقًا، الكلُّ لمس التَّغيير عن قرب، وبات يتغنَّى به وبالمدير الجديد الذي حمل مشعله، التَّغيير يُعطي للحياة معنًى جديدًا، وللوجود قيمةً مضافةً، وللكينونة نفسًا آخر.

يُلبِسُ الإنسان ثوب التَّجديد والتجدُّد، ويُزِيل عنه رداء الرُّوتين اليومي والعادة القاتلة، إلَّا أنَّ التَّغيير الذي سيظلُّ راسخًا في هذه الذَّاكرة التي أنهكتها الأيَّام وشظف العيش يبقى، دون ريب، هو تحويل المسجد كفضاء مُقدَّس تُؤَدَّى فيه الصَّلوات الخمسة داخل الملجأ إلى مكتبة تحوي كتبًا عديدة ومُتنوِّعة تُساعد وتُساهم في إثراء الجانب الثَّقافي داخل المؤسَّسة، تغيير أحدث زلزالًا وعاصفةً داخل المؤسَّسة باعتباره تطاول على حرمة المسجد كما صرخ الفقيه بعد الانتهاء من صلاة العشاء التي كانت آخر صلاة يؤمُّ فيها بهذا المسجد، وباعتباره مسَّا

بالجانب الرُّوحي لدى كلِّ القاطنين، كما أشار واحد من مُناصري الفقيه الذي بات خارج الخدمة، لكنَّ حجَّة المدير، أو على الأصح حجَّة مساعد المدير الذي كان يدير كلُّ شيء، حتى إنَّ المدير الحقيقي لم يكن إلَّا ديكورًا أو لوحة تُزين تسيير المؤسَّسة، كانت أقوى وأصح باعتبار أنَّ القاطنين في أمسِّ الحاجة إلى الكتب التي ستُغني جوانب كثيرة من شخصيَّاتهم، وسَتُفيدهم على المستوى القريب والبعيد، ناهيك أنَّ المسجد الكبير ليس بعيدًا عن الملجأ، قال الفقيه لمساعد المدير وهو كاظم الغيظ: وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ.

– أنا لم أمنع أحدًا من ذكر الله ولم أُغلق مسجدًا. أجابه مُتجهِّمًا مساعد المدير، وأضاف بصوت مسموع: "هذه مؤسَّسة ذات صبغة اجتماعيَّة وليست دينيَّة، تُساعد الفقراء وأبناء البوادي المحتاجين إلى السَّكن".

– سأل الفقيه: "ألا تحتاج كلُّ المؤسَّسات إلى مسجد يُذكَر فيه اسم الله؟"

– الأمر ليس بالبساطة التي تتحدَّث بها، الأمر يحتاج إلى تدبير مكاني ومادي وفقيه على المستوى المطلوب.

– كلُّ البلايا من وراءك أيُّها الظَّالم، ردَّ الفقيه مُلوِّحًا بيده اليمنى فاقدًا السَّيْطرة على نفسه.

– أنت أكبر البلايا هنا، والدُّودة التي تنهش من جسم الإنسان، أجابه المساعد جاحظ العينين، صراع وخصام حمل في طيَّاته كلَّ أنواع العنف اللَّفظي والمعنوي ذاك الذي دار بين الفقيه ومساعد المدير، ومن خلاله عرفنا أنَّ السبب الحقيقي لتحويل المسجد إلى مكتبة لم يكن الغرض منه إلَّا إزاحة الفقيه، وإبعاده عن المؤسَّسة بسبب حشر أنفه في الشُّؤون الداخلية للمؤسَّسة التي لا تحتاج إلَّا إلى اسم واحد يسيرها، اسم حتى لو كان ديكورًا جامدًا لا يُحرِّك ساكنًا، ولا يتدخَّل حتى في المسائل التي تعنيه، أغلب المشاريع التي ترتبط بالعشوائية، والصدفة، والسُّرعة في تواجدها مشاريع نادرًا ما يُخالفها النَّجاح، بل يصاحبها الفشل الذَّريع، ما كان يسمَّى بالمسجد أصبح مكانًا مكتظًّا بالكتب من كلِّ الأنواع، لكنَّها تحتاج إلى مَن يُديرها ويُسيِّرها لذلك أُغلقت إلى أجل غير مُسمَّى.

دبَّ التَّغيير في جسم المؤسَّسة، ومسَّ كلَّ الجوانب والأشخاص، ولم يكن بجيلالي في منأى عن هذه التَّغيُّرات أيضًا؛ إذ أصبح دوره مقتصرًا على مراقبة الدَّاخلين إلى المؤسَّسة والخارجين منها، وهي المهمَّة الوحيدة التي اقتصر وجوده عليها، لم يعد له دور آخر غير هذا الدَّور الوحيد والاستثنائي؛ تحجيم دوره ومسؤوليته داخل المؤسَّسة هو الآخر كان عملًا مُدبَّرًا بعناية فائقة من قبل مساعد المدير، كان يعمل في السرِّ والعلانية لكي يكون كما تمنَّى أن يكون دومًا، ويبدو أنَّ المراد تحقَّق، ونال بغيته، خاصة أنَّ المدير الجديد لا همَّ له إلَّا كرة القدم المتمثِّلة أساسًا في فريق الرِّيال أو "نادي الملوك" كما كان يُسمِّيه، لا شيء أعز لديه من الحديث عن انتصاراته، وألقابه العديدة، وعن مواجهاته القادمة، وعن ما يمكن تحقيقه خلال هذه السَّنة والسَّنوات القادمة، وعن رواتب اللَّاعبين الخياليَّة، وعن الطَّاقم الإداري، وعن الجمهور المدريدي، وعن المداخيل السَّنوية، وعن كلِّ ما يتعلَّق بهذا الفريق من قريب أو بعيد، لا ينطق بكلمة إلَّا إذا تعلَّق الموضوع بفريقه المفضَّل أو بالفريق المنافس الأزلي لفريقه برشلونة، يشغل التَّفكير في كرة القدم مساحة واسعة في عقول جيل هذا العصر حتى أصبحت ميزة بارزة له وخاصيَّة من خصائصه، بل بات الدِّين الجديد الذي اعتنقه بشغف الصَّغير والكبير، الغني والفقير، الرِّجال والنِّساء، الأفراد والمؤسَّسات،

الشُّعوب والحكومات، باتت وجهة مُفضَّلة للرَّساميل الضَّخمة، وللشَّركات الكبرى، هذه اللُّعبة اللَّعينة عالم عالمنا المعاصر بدون منازع، نخرت جسد السِّياسة والاقتصاد وعقول النَّاس في كلِّ مكان.

نوابغ من كهف الملجأ

طيور حلَّقت عاليةً في سماء الملجأ، قفزت فوق قساوة الظُّروف والمحن، وغرَّدت أعذب الألحان، وتركت بصمات لا تُنسى في الأذهان، قلَّة قليلة، ورغم قلَّتها، تركت إشعاعًا ظلَّ مشتعلًا لزمن طويل، ظلَّ حديث الملجأ يتوارثه السَّابق واللَّاحق، لسان مَن تمنَّى النَّجاح وفك قيود الكفاح، لا أنسى ولن أنسى ما حييت ذاك الشَّاب القصير القامة، ذو الشَّعر الكثيف، واللَّوْن البني المغلوق القريب من الأسمر، كان انطوائيًّا يُحاور نفسه كثيرًا، مُنفتحًا على كلِّ الأسئلة المطروحة حتى إنَّه يجيب عنها بإسهابٍ، لا يكلُّ ولا يملُّ من قراءة الكتب بكلِّ أنواعها، يُلقَّب بـ"أبي الكتب "؛ لأنَّه يعتبرها –فعلًا لا قولًا– جزءًا لا يتجزَّأ من ذاته وكيانه، لا يُفارقها إلَّا عند المنام، ويُشاع أنَّه يقرأ وهو نائم، كان أدبيَّ التَّخصُّص، يتقن، ويبرع في كلِّ المواد الأدبية دون نقص أو عيب، كان إذا بدأ في قراءة كتاب لا يتركه إلَّا وقد أنهاه، وإذا أنهاه يستطيع أن يستظهر من أول صفحة إلى آخر صفحة، كان حاسوبًا كامل الأوصاف،

لا يتحدَّث إلَّا مستشهدًا من مراجع وكتب اجترَّها في يوم ما، كتب في التَّاريخ والفلسفة والدِّين والأدب والجغرافيا، كتب مُكدَّسة ومُرتَّبة في ذاكرته اللَّا محدودة، حديثه حديث كتب وكتَّاب من ميادين مُتنوِّعة ومختلفة، ورغم هذه الذَّاكرة العجيبة فإنَّ أغرب ما يُميِّز هذا النَّابغة هو قدرته الخارقة في التوصُّل إلى الحلول للمسائل الرِّياضية العويصة، فقد كان طلبة سلك الرِّياضيات يلتجؤون إليه كلَّما استعصى عليهم حل مسألة رياضية، كان يمنحهم الحلَّ الأسهل والأنسب، كان اسمه المهدي، عنوان للمعرفة والذكاء، وعنوان للجدِّ والنَّشاط، والجوع المعرفي.

لم يكن الوحيد المميَّز في هذا الفضاء، بل كان هناك آخرون لهم كفاءات مُعترف بها من طرف الجميع، لا زلت أذكر ذاك الشَّاب القروي الذي لا تخفى عليه حلول لكلِّ المسائل المستعصية في الفيزياء، والكيمياء، والرِّياضيات، وعلوم الأرض والحياة حتى إنَّ أساتذة هذه المواد كانوا يضعون له النُّقطة الكاملة قبل التَّصحيح؛ لأنَّهم على يقين تام أنَّه لن يُخطئ في أيِّ تمرين مهما كان على درجة كبيرة من الصُّعوبة، بل كانوا يجمعون على أنَّ مستواه يفوق مستواهم في بعض الدُّروس، كان الأساتذة يعترفون ويقرُّون له بالتفوُّق، وقليلًا ما يعترف الأستاذ أنَّ تلميذه يفوقه علمًا ومعرفةً.

لا أنسى أيضًا ذاك الشابَّ البدويَّ الذي يلبس لباسًا واحدًا طيلة السَّنة، والذي كان حافظًا للقرآن الكريم وللمُعلَّقات السَّبع، ولبعض أشعار الشعراء المحدثين، كان يستشهد دومًا بأبيات شعرية، كنَّا نُلقِّبه "وكما قال الشَّاعر"؛ لأنَّه كثير الاستشهاد بالشُّعراء، وحديثه من أحاديثهم، وأقواله من أقوالهم..

ما كان يثيرني هو الاهتمام الكبير الذي يُوليه رئيس المؤسَّسة لهؤلاء النَّوابغ الاستثنائية، أو الطُّيور المحلَّقة في سماء الملجأ، كان يستضيفهم بين الفينة والأخرى في مكتبه، وهي عادة ترسَّخت في سلوك كلِّ المديرين الذين تعاقبوا على تسيير المؤسَّسة، كنت أعتقد جازمًا أنَّ هذا العمل هو بمثابة تشجيع وتنويه بالعمل المميَّز الذي يقومون به، وتحفيزًا لهم لكي يستمرُّوا على نفس النهج لكي يكونوا قدوةً للآخرين، لكن الحقيقة غير ذلك، الحقيقة التي تحرِّكهم، وتدفعهم إلى هذا الاهتمام الزَّائد عن الآخرين هي أنَّهم كانوا يتقاضون عليهم دعمًا وهباتٍ مالية من طرف المموِّلين، ثم إنَّ هؤلاء النَّوابغ كانوا صورةَ الملجأ في المؤسَّسات العمومية.

ومُمثِّلوها، في أحيان كثيرة، كانت لجانًا تُمثِّل المجالس المنتخبة أو شخصيات مهمة تزور الملجأ من أجل رؤية هذه الطُّيور التي وصلهم

صوت تغريدها، إنَّهم بقرات حلوب بالنِّسبة لمديري الملجأ، يُسهلون عليهم رفع المزيد من الطَّلبات، والهبات، كلُّ نتيجة تُستغلُّ أكبر استغلال من أجل الاستفادة الشَّخصيَّة، وهنا أستحضر قصَّة تلك الفتاة الصَّغيرة المسمَّاة "مريم أمجون"، حين تُوِّجت بالجائزة الأولى في مسابقة "تحدِّي القراءة"؛ ليتهافت الجميع ويبرز دوره الحاسم في نجاحها ناسين أو متناسين المجهود الرَّئيس لأولياء أمرها، والذي لولاه لما وصلت إلى ما وصلت إليه، مشكلتنا الرَّئيسة أنَّنا نُشوِّه عمدًا الحقائق تشويهًا كبيرًا، نحاول دومًا أن نُنسب لأنفسنا إنجازات لم نكن طرفًا فيها، ولم نُساهم، لا من قريب ولا من بعيد، في بلورتها، وإخراجها إلى حيِّز الوجود.

خاتمة

لا زلت أذكر يومي الأخير في الملجأ، يوم حان وداعي وتوديعي، يوم نلت شهادة الباكالوريا التي كانت شهادة يُعتزُّ بها؛ لأنَّها تضمن بعض الوظائف في مؤسَّسات الدولة، لقد كانت لحظة مُؤثّرة وفارقة في حياتي؛ لأنَّني بعد ذلك سأكون مسؤولًا عن نفسي في كلِّ شيء، في المبيت، والملبس، والمأكل، والمشرب، كنت كعصفور تحرَّر من سلطة العشِّ، وبات راغبًا في الطَّيران بعيدًا، وحيدًا، فريدًا، ومنفردًا عن السِّرب. يومها كتبت في مُذكِّرتي: "لا شيء أجمل من التَّحرُّر من السُّلطة والمراقبة والعيش منعزلًا عن القطيع مهما كان الثَّمن غاليًا؛ لأنَّ بناء الشَّخصية يبدأ بالاستقلال الذَّاتي وأخذ المبادرة".

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأَةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

هـذا العمـل الإبـداعي برعايـة داربسـمة للنشـر الإلكتروني
بشـــراكة مـــع جـــروب ملتقـــى الأقـــلام المُبدعـــة...

للاطلاع على الصفحة الرسمة لداربسمة للنشر الإلكتروني على الفيسبوك، اضغط على الأيقونة.

للاطلاع على جروب ملتقى الأقلام المبدعة على الفيســـبوك، اضـــغط علـــى الأيقونـــة.

المحتويات

توطئة 6

وشم الأمكنة 9

وقع الأفراد 21

فاتحة الحب 58

الفقيه 66

نوابغ من كهف الملجأ 84

خاتمة 88

بوح من عمق ملجأ

كانت الأسئلة تتساقط في ذهني زخّاتٍ كما لو أنها أمطار الربيع، ولا تتوقف إلا لتبدأ من جديد، كانت تستفز كل أحاسيسي وشعوري. في لحظةٍ شعرتُ بدمعة باردة تنسكب على خَدّي. تبعتها دموعٌ أخرى غزيرة لأني أحسست بالإهانة والظلم والحيف الاجتماعي إزاءَ وضعٍ جائر لا أحد يمكنه مساعدتي، ودعمي.

دار البسمة للنشر الإلكتروني

bassmabook
00212771814934
darbassma1@gmail.com